دراسة جنائية

الجريمة والعقاب

(الترجمة الكاملة)

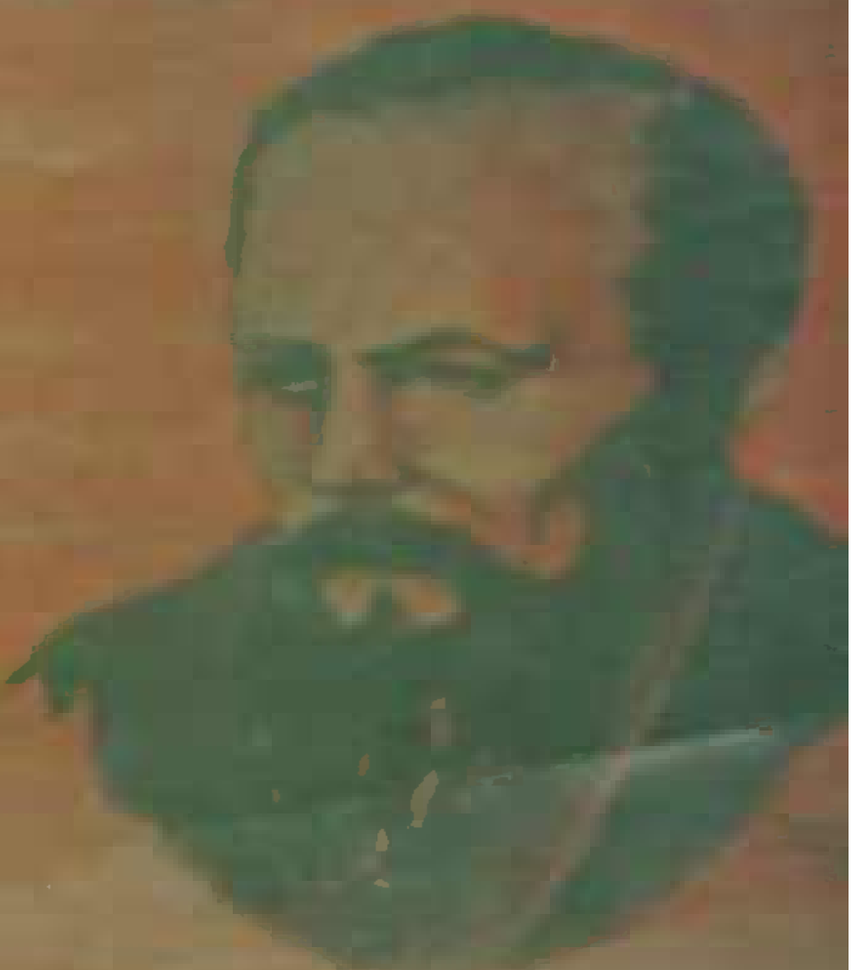

ترجم وراجع
على النص الروسي

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

دوستويفسكي

الجريمة والعقاب

(الترجمة الكاملة)

ترجم وراجع
على النص الروسي

ترجمة فايز كم نقش الكردي
مقدمة الدكتور فؤاد أيوب
مراجعة المحامي سهيل أيوب

منشورات

دار اليقظة العربية
ـ دمشق

دار مكتبة الحياة
بيروت

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

القسم الأول

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

١

في مساء يوم من أيام تموز ، والحرارة فيه على أشدها ، خرج شاب من غرفته المؤثثة المتواضعة ، الكائنة في الطابق الخامس من البناء القديم في شارع « س » وهبط السلالم ثم اتجه ببطء نحو جسر « ك » بعد أن نجح في تجنب لقاء صاحبة البيت التي كانت تقيم في جناح خاص في الطابق الادنى تراقب من يهبط من الاعلى خلال باب المطبخ الذي يطل على السلم والذي كانت تتركه مفتوحا أبدا . وكان يخشى لقاءها لانه كان مدينا لها بمبلغ كبير لقاء سكناه في تلك الغرفة التي تشبه الزنزانة ولقاء الطعام الذي كانت تقدمه اليه ، فكان يهاب ذلك اللقاء ويشعر بارتباك واضطراب كلما اراد التسلل من الدار .

وليس مرد ذلك خوفه وانكساره ، انما كان بسبب الانقباض والتطير اللذين لازماه منذ حين . فقد عاش منطويا على نفسه في عزلة تامة يوقره العوز وتسحقه القاقة حتى بات يتهيب المقابلات على اختلاف الوانها ...

وبلغ به الحال أن ارتضى بما أحاطه من شظف وجوع بعد أن كان يشعر بمرارة وألم . فاهمل الموارد التي كانت تكسبه خبزه اليومي وعزف عن البحث عن سواها ...

لم تكن صاحبة الدار لتخيفه حقا مهما بلغت نواياها المبيتة ضده، لكنه ما كان يطيق الوقوف معها على « بسطة » السلم والاصغاء الى ذلك السيل المتدفق من الكلمات التي تنطلق من فمها حول موضوعات لا تهمه في قليل أو كثير ، والتي يعقبها دائما الحاح متكرر بلزوم دفع ما عليه من ديون ، الحاح توشيه التهديدات والشكايات وتضطره من جانبه الى اختلاق الحجج والاعتذارات والكذب ... فكان يفضل أن

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

يتسلل على السلم كالقط الحذر وأن يختفي دون ان يراه احد ، حتى اذا ما بلغ الطريق ، تخلى عن مخاوفه أو تخلت عنه لتعود اليه في محاولته التالية عندما تدعوه الحاجة الى الخروج من جديد !

ولم يكد يبلغ الشارع في تلك الليلة حتى تبخر الخوف الذي يلازمه من دائنيه ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة وراح يحدث نفسه قائلا :

« كيف يثير هذا الامر التافه في نفسي كل هذا القلق وانا أتدبر موضوعا خطيرا كالذي انا بصدده ؟ ... صحيح ان كل شيء في متناول يد الانسان ، ولكنه يفلت كل شيء بتذالته وجبنه . انني متلهف لمناقشة هذا الامر كمبدأ لأعرف ما يخيف الرجال اكثر من سواه ... لا شك أن ما يخيفهم لا يتعدى مجرد اجتيازهم خطوة في سبيل تنفيذ فكرتهم ، أو تلفظهم بكلمة دون تدبر ... بيدَ انني اثرثر كثيرا ... ولأنني اكثر الكلام لا اعمل شيئا .. او على الاصح انني اثرثر لافتقاري الى العمل ... ولقد تعلمت ذلك خلال هذا الشهر بسبب بقائي اياما كثيرة منطويا في ذلك الحجر افكر في كل شيء وفي لا شيء .

ولكن لم اذهب الآن الى هناك ؟ هل استطيع تنفيذ ما اعتزمته ؟ هل يعقل ان اكون جادا فى ذلك ؟ لا أعتقد أنني جاد في عزمي ... انني اخدع نفسي بوهم يداعب مخيلتي . ولكنه لا يتجاوز حد الدعابة . نعم الدعابة . »

كان الجو خانقا والحرارة لا تحتمل ، والشارع مزدحما بالناس وقد تناثرت على جنباته « السقالات » المنصوبة وقطع القرميد واحجار الكلس، وعبق الجو برائحة الغبار والعفن التي يتفرد بها الصيف والتي الفها فقراء بيترسبورج الذين افعدهم سوء حالهم عن ارتياد امكنة الاصطياف . لم تكن أعصاب الشاب المتعبة لتحتمل مثل تلك المناظر

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

المجبولة بالاحاسيس المؤلمة التي ترهق الاعصاب . أضف الى ذلك روائح المشارب المتوافرة في ذلك الجزء من المدينة والسكارى الذين يلاقيهم السائر أينما اتجه ... كل ذلك كان يضفي على هذا الخليط من المشاهد لونا قاتما تتقزز منه النفس .

بدا الامتعاض واضحا على قسمات وجه الشاب الدقيقة ... ولكنه كان انطباعا خاطفا سرعان ما تلاشى . ولم يلبث ان استغرق في تفكير عميق واستولى عليه نوع من الذهول ، فراح يتقدم في طريقه دون ان يرى شيئا مما حوله او ان يحاول رؤية ما يحيط به .

لم يكن قبيح المنظر هزيل التكوين ، بل كان مليحا يلفت النظر، ذا شعر أشقر فاتح وعينين داكنتين وقامة فوق الوسط ، رشيقا متين البنيان . كان يسترسل احيانا في مخاطبة نفسه على جري عادته التي الفها في ايامه الاخيرة واعترف بها ، ثم لا يلبث ان يضبط نفسه ليعترف بان افكاره مضطربة متوترة وانه كان خائر القوى منذ ان امضى اليومين السابقين دون أن يتناول طعاما يذكر .

كان يرتدي ثيابا بالية لم يكن ليخرج بمثلها الى الشارع لولا اعتياده عليها وان سكان ذلك الحي لا يلقون بالا الى مثل هذه الامور.

اقترب من « سوق العلف » حيث تقوم متاجر من طراز خاص ، ويقطن عدد من الصناع والعمال تزدحم بهم شوارع هذه المنطقة من بيترسبورج وأزقتها ، وبدت لعينيه صورة نشيطة حافلة بالحركة ، لا تدع مجالا للخوف من التعرض لنقد المارة اذا ما وقعت ابصارهم على مظهره الشاذ الزري . لكن نفسه كانت طافحة بشعور من الاحتقار الاهوج حتى انه رغم سرعة التأثر المعروفة فيه والتي كانت تبلغ لديه احيانا مبلغ السذاجة ، كان يعرف ان خجله من عرض اطماره في الشارع لن يكون اكثر منه في عرضها في اي مكان آخر . بيد انه كان

PDF compression, OCR, Web-optimization with CVISION's PdfCompressor

يخشى ان يقابل بعض معارفه واصدقائه القدامى الذين كان عازفا عن لقياهم والاحتكاك بهم .

وحدث ان مر سكير كان محمولا لغير ما سبب على عربة كبيرة فارغة . فلما حاذاه هتف به قائلا : « اسمع يا هـذا ... يا صانع « البرانيط » الالماني ! » فتوقف الشاب فجأة وامتدت يده بحركة عصبية الى قبعته المائلة على جانب رأسه على ابشع شكل ! لقد كـانت قبعة مستديرة عاليه كان قد اشتراها من محلات « زيمرمن » لكنها خلقت لكثرة الاستعمال وحـال لونهـا وامتلأت بالثقوب واللطخات وتمزقت حوافيها ، وخامره شعور لا يمت بصلة الى الارتباك بل الى الـفزع ...

تمتم قائلا : ــ لقد كنت اتوقع ذلك . وانهـا لهفوة عظيمة هذه التي اكاد اتورط فيها . ان اتفه الاشياء تكفي لتعريض القضية كلهـا للخطر ... نعم ان هذه القبعة تلفت الي الانظار لانها مضحكة وهـذا هو السبب الذي يجعلها محط الانظار ، فلو استبدلتها بقبعة من ذات الطرف الواحد « كاسكيت » لانسجمت تماما مع أسمـالي . ان أي كساء للرأس مهما كان قديما افضل من هذه التي لم يعد يمكن تسميتها قبعة والتي لا يقبل احد ان يضع مثلها على رأسه فهي ترى عن بعد ويبقى شكلها عالقا في الاذهان . نعم ... لسوف يذكرونها ... وستصبح عندئذ دليلا على اداتني .. بينما ينبغي ان امر في هذا الظرف دون ان ألفت الي الانظار . نعم .. شيء تافه بل شديد التفاهة ولكنه يكفي لافساد كل التدابير . وعلى الغالب تفسد أتفه الاشياء جلائل الامور !

لم يكن يقصد مكانا قصيا ، بل كان يعرف عدد الخطى اللازمة لبلوغ هدفه ابتداء من باب مسكنه .. نعم .. لقد كان عليه ان يقطع سبعمائة وثلاثين خطوة تماما . فلقد عدها لما كان مشروعه كـامنا في

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

تطلق التصور .. ولم يكن ليؤمن في ذلك الحين بمثل تلك الاحلام وبامكانية تحقيقها ، بل كان يكنها فى اعماقه ليدخل البهجة والرضى على نفسه متأثرا بجرأة تلك الاحلام المخيفة الحافلة بالمغريات . ولكن ها قد مضى على ذلك شهر كامل . وبدأ ينظر الى الامور ويتخيلها من زاوية مختلفة . وعلى الرغم من انه كان يعيب على نفسه خلال مناجاته لها قلة نشاطه وتردده وعدم ثقته ، الا انه اعتاد برغمه على اعتبار « ذلك الحلم الكريه » امرا جديرا بالعناية وها هو الآن فى طريقه للقيام « بتجربة » لمشروعه ، فلا عجب اذا تعاظم اضطرابه مع كل خطوة .

اقترب من بناء كبير يشرف احد جانبيه على القناة والآخر على شارع « ع » وقد اجتاحته هزة عصبية عنيفة ، كان هذا البناء المقسم الى مساكن صغيرة مأهولا بعدد من الصناع من مهن مختلفة بين صانعي اقفال وخياطين وطاهيات وكان فيه المانيون من فئات مختلفة، وفتيات من بائعات الجسد وموظفين صغار مما جعل حركة الدخول والخروج دائمة خلال البوابتين الكبيرتين والناس يخترقون الساحتين الملحقتين بذلك البناء الضخم في طريقهم الى السلالم . وكان امر العناية بالبناء موكولا الى ثلاثة أو اربعة من الخدم . فكان سروره عظيما حينما لم يصادف منهم احدا وهو يجتاز البوابة ويتسلل الى الداخل صاعدا سلما الى اليمين . كان الظلام شديدا فى ذلك السلم الضيق المعد للخدم . ولكنه كان قد اعتاد صعوده حتى اصبح ملما بكل دقائقه ، وشعر انه في تلك الظلمة بمنجاة عن كل عين باحثة .

ولما بلغ الدور الرابع ، راح يناجي نفسه قائلا : «ماذا يكون حالي من الخوف اذا حدث وجئت لتنفيذ « الخطة » وانا الذي ارتعد فرقا من مجرد التجربة ؟

التقى هناك بجنود قدامى ـ اصبحوا حمالين بعد تركهم الخدمة

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

ـ كانوا يسدون عليه الطريق وهم ينقلون اثاث مسكن اخلاه مؤخرا موظف الماني كان يشغله مع اسرته . وكان يعرف هـذا سلفا ، فراح يحدث نفسه على عادته قائلا : « ان هذا الالماني يرتحل اذن ، ولن يبقى فى هذا الجزء من البناء الا تلك العجوز ، لا بأس .. انها معلومات مفيدة على اية حال .. » ، ثم قرع باب العجوز .

ند عن الجرس صوت صدىء وكأنه لم يصنع من النحاس بل من الحديد (التنك) الابيض شأن كل الاجراس التي في المساكن الصغيرة المشابهة لهذا المسكن ، ولقد ذكره صوت الجرس الذي كان قد نسيه ، بواقعه لم يلبث ان تمثلها في خاطره .. فارتجف فجأة وشعر بان اعصابه لن تستطيع الاحتمال اكثر مما احتملت .

انفرج الباب قليلا ، ومن خلال الفتحة الضيقة ، راحت صاحبة المسكن تعاين هذا الدخيل بحذر واضح . كانت عيناها تلتمعان في الظلام ، فلما شاهدت الحمالين يعج بهم الممشى اطمأنت بعض الشيء وفتحت الباب على مصراعه ، فاجتاز الشاب العتبة ليدخل الى حجرة امامية صغيرة غارقة فى الظلام تؤدي الى مطبخ يفصله عنها حاجز من الخشب ، ووقفت العجوز امامه تتفحصه بنظرها بسكون .

راح بدوره ينظر اليها : لقد كانت عجوزا عجفاء قصيرة القامة تحمل على كاهلها عبء اعوامها الستين ، ذات عينين مستديرتين ثاقبتين وأنف صغير مدبب ووجه اقرب الى الشراسة . كانت عارية الرأس يلتمع شعرها الاشهب من الزيت الذي ضمخ به ، وكانت تحيط عنقها الطويل الدقيق الشبيه بساق الدجاجة ، بخرقة من النسيج القطني وقد ألقت على كتفيها فراء رثاً متآكلا ، وهي لا تنفك تسعل سعالا عميقا . ولعلها لمست فى نظرته شيئا غريبا اذ سرعان ما ارتد اليها حذرها وعادت الى عينيها نظرات الشك التي استقبلته بها .

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

تذكر الفتى انه يجب ان يتقرب اليها وأن يكون لطيفا مستملحا ، لذلك انحنى امامها باحترام وهو يتمتم قائلا :

ـ اسمي راسكولنيكوف ، وانا طالب علم . ولقد جئت اليـــك منذ شهر تقريبا ...

فاجابت العجوز وهي تضغط على كل كلمة من كلماتها دون ان تزايلها النظرة المتشككة :

ـ اذكر يا صديقي انك زرتني من قبل .. نعم انني اذكر ذلك تمـاما .

فاردف راسكولنيكوف وقد اقلقه حذر العجوز كما ادهشه :

ـ حسنا [illegible] سبيل امر من نوع ذلك الذي سبق ان عرفته ..

ثم سكت وراح يحدث نفسه قائلا : « لعلها حذرة هكذا دائما .. غير انني لم الاحظ ذلك في المرة السابقة .. » وتملكه شعور كريه .

صمتت العجوز كأنما تفكر فيما قاله الشاب ، ثم اشارت اليه بيدها نحو باب الغرفة وقالت وهي تفسح له الطريق :

ـ فلتدخل يا صديقي ..

كانت الغرفة صغيرة يكسو جدرانها ورق اصفر وتزين النوافذ ستائر من « الموصلين » تضفي عليها الشمس الغاربة فى تلك الساعة ضياء قويا . وبنظرة سريعة ، شملت الغرفة ومحتوياتهـا ، حـــاول راسكولنيكوف ان يطبع في مخيلته معالمها . اتضح لديه من نظرته الاولى انه ليس فيها ما يلفت النظر ، كان اثاثها القديم البالي يتألف من اريكة ذات مسند عريض من الخشب المليء بالعقد ، وطاولة بيضوية الشكل

CVISION TECHNOLOGIES
PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

موضوعة بالقرب منها ، يضاف الى ذلك منضدة زينة ذات مرآة في حاجزها وعدد من الكراسي المرصوفة بحذاء الجدران ، وكانت لوحات غير ذات قيمة تحبط بها اطارات متداعية مهشمة ، تمثل فتيات المانيات يحملن فى ايديهن العصافير ، معلقة على الجدران ، وفى احد الاركان اضيء قنديل امام تميمة دينية « ايقونة » صغيرة .

لكن جو الغرفة كان يوحي بنظافة دقيقة . فقد كانت قطع الاثاث ملمعة مصقولة والارضية الخشبية مطلية بالشمع ولامعة حتى ليتعذر اكتشاف ذرة من الغبار في المسكن كله .

لم يمر الشاب بهذه البادرة دون ابداء ملاحظته لنفسه على عادته اذ قال :

ـ « لا يمكن لغير هؤلاء العجائز المترملات الخبيثات ان يُحِطن انفسهن بمثل هذه النظافة » .

وراح يتطلع بزاوية عينه بفضول الى ستار من قماش هندي يخفي وراءه بابا يؤدي الى غرفة ثانية ـ لم يدخل اليها قط من قبل ـ تحتوي على سرير العجوز وخزانتها .

تبعته العجوز الى الغرفة وانتصبت واقفة امامه لتعود الى تفحصه والتدقيق في قسماته عن قرب ، ثم سألته بلهجة جافة :

ـ ماذا تريد ؟

فاخرج الشاب من جيبه ساعة دقيقة قديمة من الفضة وقد نقشت على غلافها الكرة الارضية وتدلت منها سلسلة من الفولاذ وقال :

ـ لقد جئتك بشيء ترهنينه !

ـ ولكن الرهن السابق قد حل اجله منذ ثلاثة ايام ..

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

ـ لا تبتئسي .. سوف ادفع لك فائدة شهر آخر ، فصبرا ..

ـ سأصبر اذا شئت يا بني وانا في حل من بيع المرهون منذ الان!

ـ وهل تعطينني كثيرا لقاء هذه الساعة ، يا آليونا ايفانوفنا ؟

ـ آه .. انك تأتيني باشياء تافهة عديمة القيمة . انت تدري يا صديقي أنني في المرة السابقة رهنت لك ذلك الخاتم لقاء روبلين رغم انه يمكن شراء مثله من اي صائغ بروبل ونصف !

ـ حسنا ، اقرضيني اربعة روبلات ولسوف اعيدها اليك واسترجع ساعتي لانني ورثتها عن ابي ، انني سأحصل على مال في فرصة قريبة .

ـ روبل ونصف اذا اردت . وعلي ان احسم منها الفوائد سلفا.

فصاح الشاب مستنكرا : ـ روبل ونصف ؟..

ـ لك الخيار في اخذها او رفضها .

وارفقت قولها باشارة من يدها التي تحمل الساعة فقدمتها اليه.. اطبقت اصابع الشاب عليها ، لقد بلغ من ثورة غضبه ان كاد ان ينسحب .. بيد انه تمالك نفسه بسرعة حينما فكر في انه لا يملك شروى نقير ، وطمأن نفسه بانه ما جاء لهذا الغرض وحده ، لذلك فقد قال لها بصوت خشن قاس :

ـ حسنا .. هاتي المبلغ ..

نبشت العجوز في جيبها بحثا عن مفاتيحها ، ثم مضت الى الغرفة التي يحجب بابها الستار . ولما انفرد بنفسه ، راح يرهف السمع بفضول وقد استغرق في الحدس والتخمين . تناهى الى اذنه صوت الخزانة وهو يفتح فناجى نفسه قائلا : « لعل المال في الدرج الاعلى ».

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

حسنا .. انها اذن تحمل مفاتيحها في جيبها الايمن وهي جميعهـا في حزمة واحدة تجمعها حلقة من الفولاذ وبينها مفتاح اكبر من الاخرين بثلاث مرات لا شك انه ليس لباب الخزانة . وعلى هذا فان لديها ولا شك صندوق حديدي وهـــذا مما يثير الفضول .. فالصناديق الحديدية كلها تفتح بمفاتيح من هذا الطراز .. ولكن كم امقت هذا..

رجعت العجوز بعد برهة وابتدرته قائلة :

ـ باعتبار فائدة الروبل الواحد عشرة « كوبيكات » في الشهر ، فان مجموع الفائدة التي يجب ان اتقاضاها سلفا عن روبل ونصف هي خمسة عشر كوبيكا ، يضاف اليها فائدة الروبلين اللذين اقرضتهما لك في الشهر الفائت ولم تردهما ، وهي على هـذا الاساس عشرون كوبيكا ، فيصبح مجموع الفائدة خمسة وثلاثين كوبيكا ، ويبقى لك على ساعتك هذه روبل واحد وخمسة عشر كوبيكا هاكها ..

ـ كيف ذلك ؟ الن يبقى لي اذن الا روبـل واحـد وخمسة عشر كوبيكا ؟

ـ تمـاما ..

لم يعقب الشاب بكلمة ، ومد يده فاخذ المال وراح ينظر الى العجوز كما لو كان لديه ما يفعله او ما يقوله لها دون ان يـستطيع تحديد ذلك القول وذلك الفعل على وجه الدقة ، واخيرا قال :

ـ علني آتيك في الايام القريبة المقبلة بشيء آخر ، قطعة فضية على شكل علبة سجاير فاخرة انتظر ان يردها الي قريبا احد الاصدقاء .

ثم صمت مرتبكا ، فقالت آليونا ايفانوفنا :

ـ ستتحدث عن ذلك في حينه يا عزيزي .

اتجه نحو الردهة وهو يقول بلهجة اجتهد ان تكون بريئة بسيطة:

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

ـ الوداع .. وعلى فكرة ، هل انت دائما وحيدة في البيت ؟ هل لا تمكث اختك لديك احيانا ؟.

ـ ماذا يهمك من شأن اختي ؟

ـ لا شيء البتة .. لا تتصوري شيئا .. الوداع يا آليونا ايفانوفنا .

خرج راسكولنيكوف وهو فريسة اضطراب متزايد . وراح وهو يهبط السلم ، يتوقف احيانا وكأنه اقتنع بامر ما فجأة . ولما بلغ الشارع هتف :

ـ آه يا ربي ! كم هو مقيت كل هذا .. هل من المعقول .. هل من المعقول .. ان أ... ثم اضاف مؤكدا : « لا ، انها حماقة ، انه محال .. هل حقيقة مرت برأسي فكرة مريعة كهذه ! يا للحمأة التي يستطيع قلبي ان يضمها في اعماقه .. انه شر الضرر ، بل القذارة ، الخزي الملطخ بكل ذلك .. كلما افكر انني هدهدت هذا الامل .. »

كان يفتقر الى التعابير والكلمات القادرة على التعبير عن الشعور الذي كان يهزه . فالاشمئزاز العميق الذي كان يعذبه ويقلقه حينما كان في طريقه الى مسكن هذه العجوز ، بلغ من شدته وامتداده في نفسه درجة جعلته عاجزا عن الافلات من ضيقه وتبرمه الحاليين . مضى في سبيله يذرع الرصيف مترنحا كالرجل الثمل دون ان يلقي بالا الى المارة الذين كان يصطدم بهم . ولم يتجلد ويتماسك الا عند ما ابتعد عن الدار المشؤومة بشارع كامل . اجال بصره فيما حوله . فاذا به امام حانة تطل على الطريق يهبط النازل اليها على سلم يقوده الى طبقة سفلى ، واذا باثنين من السكارى يخرجان منها وهما يتساندان ويتشاتمان . ودون ان يفكر في الامر هبط « راسكو لينكوف » الدرجات الى الحانة .

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

لم يكن قد دخل حانة من قبل ولكنه كان يشعر بدوار في رأسه وبعطش حاد في جوفه ، كان يشتهي ان يشرب كأسا من « البيرة » المنعشة وكان يعزو ضعفه الى الجوع . انتحى ركنا معتما قذرا وطلب لنفسه الشراب ، وعب كأسه لاولى بشراهة ، فشعر براحة وعادت افكاره اكثر وضوحا وتركيزا ، راح يخاطب نفسه يحفزه امل جديد :

ـ حماقات هي كل هذه الافكار .. ليس في الامر ما يزعج . ان هذا التشوش مرجعه مادي ، ولسوف استعيد قوة التفكير بعد ان اعب قدحا آخر واتناول قطعة من (البسكويت) ، سيعود الي صفاء افكاري ورباطة جأشي .. نعم لا شك ان هذا كان عديم الاهمية ..

شع في عينيه بريق خلفته الوداعة التي اعقبت الراحة النفسية التي شعر بها ، وبدا كأنه قد تخلص منذ حين من حمل كان يبهظ كاهله وراح يلقي على الموجودين نظرات مفعمة بالود والصداقة . غير ان شعورا غامضا كان يؤكد له ان هذا التفاؤل الذي غمر نفسه يرجع كذلك الى حالة مرضية .

لم يكن في الحانة الا نفر قليل من الرواد في مثل تلك الساعة .. فقد غادرها في اعقاب الثملين ـ اللذين رآهما يخرجان منها عند دخوله ـ خمسة اشخاص يجذبون معهم فتاة ترقص على انغام (اكورديون) فلما خرجوا ، عم السكون في المكان وران الهدوء . ولم يبق في الحانة الا رجل ـ يبدو انه من الباعة ـ يعاقر كأسا امامه وقد سيطر عليه الشراب .. بينما كان زميله ـ وهو رجل طويل القامة ضخم الجثة ـ يرزح تحت وطأة المسكر . كان يترنح على مقعده يمينا وشمالا ، ومن حين الى آخر ، كان يستفيق من غفوته فيباعد بين ذراعيه مقلدا الراقصات ، فيتلوى جسمه الممتلىء الضخم بفعل تلك الحركات الوتيرة التي كان يزاولها وهو جالس في مقعده . كان يدمدم بصوت نشاز

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

(لازمة) ويحاول تذكر الابيات التابعة لهـا فتخرج من فمـه متفككة متعثرة :

خلال عام داعبت زوجتي .

خلا .. ل عام دا .. عب .. ت زوجتي .

ثم يصمت ويغفو حتى اذا استفاق من جديد راح يغني :

كنت امر بالبـاديا تشيسكايـا

عندما وجدت صديقتي الطيبة ....

وغني عن القول انه كان وحده يطرب لغنائه بينما كان صديقه يقابله بمظاهر التقزز والاستنكار كلما انفجر في غنائه [illegible] كان هناك ايضا رجل آخر يلوح عليه انـه موظف متقاعد ... كان يجلس منفردا وهو يتناول من كأسه جرعات صغيرة بين الحين والآخر ويسرح طرفه حوله ... كان يبدو انه فريسة اضطراب معين ...

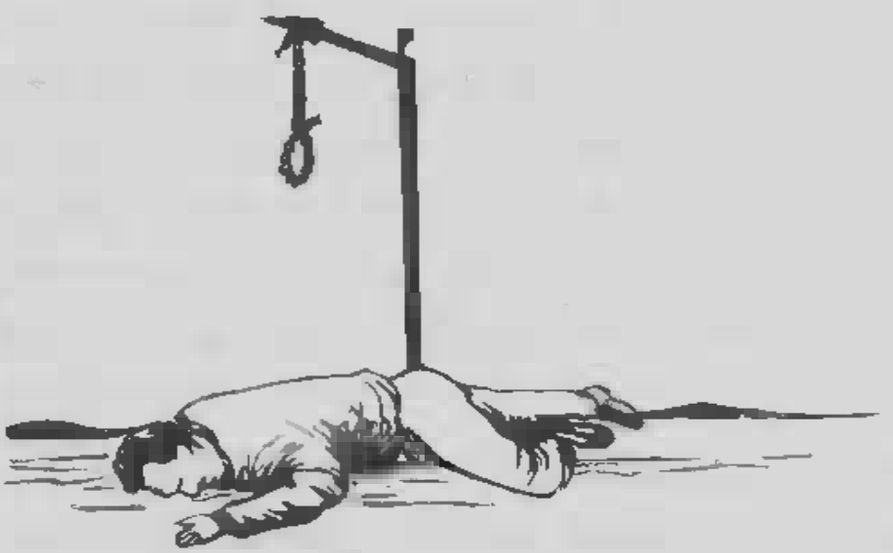

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

٢

لم يكن راسكولنيكوف ميالاً الى المجتمعات بل كان كما أسلفنا ، يتحاشى كل احتكاك مع الناس وخصوصا في الآونة الاخيرة. غير انه فى تلك اللحظة ، كان يشعر بدافع يجتذبه الى اقرانه من الناس وكأن ثورة قامت في كيانه جعلته يتنكر لعزلته ويندفع ساعيا وراء اقامة علاقات مع الآخرين ! كان ذلك الشهر المؤلم الحافل بالعزلة والاحاسيس المختلفة قد نال منه لدرجة راح بعدها يحس برغبة قوية في التعرف الى جو جديد وعالم جديد حتى ولو كان مرذولا موبوءا . وهكذا شعر بسرور دفعه الى المكوث في مكانه اطول مدة ممكنة .

كان صاحب الحانة منزويا فى حجرة مجاورة للبهو العام لكنه كان لا يفتأ يتردد على « الصالة » الرئيسية حيث زبائنه يشربون ويسمرون فيهبط اليهم درجات كثيرة تظهر منه بادىء ذي بدء حذاءه اللامع الانيق ذا الساقين الحمراوين .. ولم يكن يضع حول عنقه رباطا بل كان يرتدي تحت « الرودنكوت » المنسجم مع قامته ، صدارة من الساتان الاسود شديدة القذارة وكان وجهه يلمع من الشحم اشبه بقفل غمس في الزيت حديثا . ووراء الخوان ، كان ينتصب غلام يكاد يبلغ الرابعة عشرة من عمره ، بينما يقوم غلام آخر اصغر سنا على خدمة الزبائن . وكانت حلقات من القثاء معروضة على شكل ساعة ، الى جانب قطع من « بسكويت » حائل اللون وشرائح من لحم السمك تفوح منها رائحة كريهة .. وكانت الحرارة شديدة خانقة لا تحتمل والجو مشبعا برائحة الكحول حتى انه يكفي ان يتنفس المرء خمس دقائق فيه حتى يثمل .

يحدث احيانا ان نلتقي باشخاص نجهلهم تمام الجهل ومع ذلك نشعر باهتمام بهم وبدافع يقربنا منهم قبل ان نبادلهم كلمة واحدة ..

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

كذلك كان شعور « راسكولنيكوف » حيال ذلك الرجل الجالس في معزل عن الآخرين .. ذلك الذي يلوح عليه انه موظف متقاعد .. فلم ينقطع عن النظر اليه خصوصا وان الموظف بدوره كان يرقبه بالحاح ، والرغبة في التقرب منه واضحة على وجهه . بينما كان ينظر الى الآخرين بما فيهم صاحب الحانة ، نظرة عادية ، نظرة خبير ، طافحة بنوع من الترفع المقرون بالاشمئزاز وكأنهم يأتون بعده في رفعة المقام والمكانة الاجتماعية او درجة الثقافة ، حتى لعز عليه ان يبادلهم الحديث والكلام . كان رجلا متجاوزا العقد الخامس من عمره ، متوسط القامة متين البنية تبعثرت على فروة رأسه السوداء شعرات بلون اشهب تشي بسنه . وكان وجهه متورما بتأثير الادمان ، اصفر ، او على الاصح ميالا الى الخضرة . وكانت عيناه تلتمعان تحت جفنيهما المنتفخين تشوبهما حمرة لا تخفي الحيوية العنيفة الماثلة في نظراتهما . وكانت فيه ظاهرة خاصة تجتذب الانتباه : ذلك ان نظرته كانت تستعر بنوع من الحماس ... لم يكن ينقصه الذكاء ولا الاتزان ولكن كانت تصدر عنه احيانا حركات فجائية غير مقصودة يمكن ان تعزى الى الجنون . كان مرتديا لباسا اسود رسميا « فراك » قديما ممزقا وقد انتزعت ازراره الا واحدا كان لا يزال صامدا في مكانه على شكل ما ، وكأنه اراد بادخاله في العروة المقابلة له ، ان يحتفظ بالمظهر اللائق بدافع من احترام الرسميات ، وقد برز من الصدارة المجدبة قميصه المغطى بالبقع والأوساخ .. كان حليق اللحية ككل الموظفين ولكن لحيته ما كانت مزالة منذ ايام بدليل تلك الحزمة من الشعر القاسي التي كانت نابتة على خديه ، اما حركاته وهيئته فكانت مطبوعة « بالبوروقراطية » المهيبة .. كان يبدو عليه برغم ذلك شيء من القلق : فكان لا يفتأ يسوي شعره ويضغط راسه بين راحتيه حينا تلو الآخر ببأس وقنوط ، جاعلا مرفقيه على المائدة القذرة المبللة بالجعة . واخيرا نظر الى

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

راسكولنكوف بثبات وخاطبه بصوت مرتفع حازم قائلا :

ـ هل تعتبرني متجاسرا يا سيدي اذا اتصلت بك بهذا الشكل المباشر ؟ أنه على الرغم من ان مظهرك لا يدل على مكانة رفيعة ، غير ان خبرتي تدلني على أنك رجل ذو تربية حسنة لم تعتد الشراب . لقد كنت ابدا احترم التربية خصوصا اذا تماشت مع الشعور القلبي . انني احمل لقب مستشار واسمي مارميلادوف المستشار القانوني . هل انت موظف بالمثل ؟

فاجابه الشاب وقد بوغت قليلا من لهجة التفخيم التي اتسم بها حديث الرجل ومن مفاجأته بهذا الحديث المباشر الذي لم تسبقه مقدمات:

ـ كلا .. انا طالب علم ..

لم يستطع ـ رغم الرغبة التي أحس بها مؤخرا في اقامة علاقات مع كائن من كان ـ التحرر من ذلك الشعور بالنفور الذي ما انفك يلازمه ويستعر في نفسه كلما وجه اليه غريب كلاما ينال منه او على الاقل يحمل بين طياته معنى النيل من شخصه ..

استرسل الموظف قائلا :

ـ طالب علم او طالب سابق ! لقد فكرت في هذا . انها الخبرة الطويلة المستمرة ..

ووضع أصبعا على جبهته تأكيدا لميزاته العقلية واضاف قائلا :

ـ لقد كنت طالب علم او انك على الاقل ترسمت برنامجا دراسيا .. ولكن هل تسمح لي ؟..

وأشفع كلامه بالفعل ، اذ نهض من مجلسه مترنحا وحمل صحيفته وقدحه واتجه نحو مائدة الفتى حتى اذا ما بلغها جلس الى جانبه ..

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

كان ثملا ولا شك ، ولكنه كان يتحدث بجلاء وحماس لو لا بعض الالتباس والاختلاط الذي كان يشوب حديثه بين الحين والحين . تهافت على « راسكو لينكوف » بتعطش حتى وكأنه كان هو الآخر قد امضى شهرا كاملا لم يتحدث خلاله مع احد !

اردف بلهجة رزينة يقول :

ـ حقيقة يا سيدي العزيز ان الفقر ليس عيبا ، كما اعرف كذلك أن الادمان رذيلة.. لكن العوز يا سيدي نعم العوز ، انه عيب ولا شك. لانك في الفقر تستطيع الحفاظ على نبل شعورك المرهف . لكنما فى العوز لم يتوصل احد الى الابقاء على كرامته ! والمعوز لا يستدعي طرده بالعصا بل بالمكنسة ، لتكون معاملته اكثر زراية وتحقيرا .. والناس على حق في ذلك . لان المعوز نفسه هو اول من يتذلل ويريق ماء وجهه ..

واردف بعد صمت قليل :

ـ منذ شهر يا سيدي ضرب السيد « ليبيزيا تنيكوف » زوجتي .. وانت تدرك أن زوجتي تختلف عني بالطبع .. فهل رأيت مثل هذا الذل؟ .. واخيرا اسمح لي بان ألقي عليك سؤالا واعتبره لمجرد الفضول : هل أمضيت مرة الليل على نهر النيفا في الزوارق التي تحمل العلف ؟

فاجابه راسكو لينكوف :

ـ كلا .. لم يسبق أن وقع لي ذلك ! ولكن ماذا تقصد بسؤالك ؟

ـ حسنا .. اردت ان اقول : انني أبيت حيث ذكرت لك منذ خمس ليال !

ثم ملأ قدحه وافرغه في جوفه واسترسل في التفكير ... كانت ثيابه وما بقي عالقا بها من القش تؤيد قوله ، حتى ان رأسه لم يسلم من المساهمة بنصيبه في هذا التأييد .. ويمكن للناظر اليه ان يحكم بانه لم

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

يبدل ثيابه ولم يغتسل منذ خمسة ايام حقا .. كانت اظافره مسودة لكثرة ما تراكم تحتها من الاوساخ ويداه الضخمتان المحمرتان ، قذرتين بشكل ملحوظ .

بدا كأن الحديث قد اجتذب اهتماما عاما بين الموجودين لم يبلغ بعد درجة التركيز . فالغلامان كانا يتضاحكان وراء الخوان الكبير بينما لاح صاحب الحانة وكأنه نزل من غرفته العليا خصيصا للاستماع الى هذا الانسان « المسلي » ! فكان جالسا على مقربة وهو يتثاءب بخمول ويتصنع الاهتمام مما يؤكد ان « مارميلادوف » كان معروفا منذ بعيد في ذلك المكان . لا شك ان ضعفه ازاء ميله لالقاء المحاضرات الطنانة ، عاد عليه بمحادثات كثيرة مع غرباء لم يكن يعرفهم من قبل في غير تلك الحانة .. وعادة التحدث الى الناس مستحكمة عند كثير من السكارى وخصوصا لدى اولئك الذين لا يجدون معاملة حسنة في دورهم ، والذين يفضلون أي شيء على المنزل .. لذلك تراهم يحاولون بث رفاق السكر شكاياتهم وتظلمهم سعيا وراء اكتساب عطفهم اذا امكنهم ذلك .

هتف صاحب الحانة بصوت جهير :

ـ يا لك من مهرج يا هذا .. لِمَ لا تشتغل ؟ لم لا تؤدي اية خدمة طالما أنك موظف ؟

فاجابه « مارميلادوف » موجها حديثه الى راسكو لينكوف كما لو كان هو المتحدث :

ـ لم لا أؤدي خدمة يا سيدي ؟ لم لا أؤدي أية خدمة ؟ أولا يقطر قلبي دما كلما احسست بما انا عليه من ذل وحقارة ؟.. عندما ضرب السيد « ليبيزيا تنيكوف » منذ شهر زوجتي المسكينة بيده بينما كنت انا متهالكا اشبه بالاموات لشدة السكر .. أو لم يكن ذلك ليحز في

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

قلبي ؟ اسمح لي ايهـا الشاب .. هل وقع لك .. اه .. ان توسلت لاقتراض بعض المال دون جدوى؟؟

ـ لقد حدث لي ذلك .. اريد ان اقول .. ماذا تقصد بكلمة دون جدوى ؟

ـ اريد ان اقول بكلمة دون اية جدوى ، ان تكون متأكدا سلفا من ان مساعيك فاشلة لن تصل بك الى نتيجة .. خذ على سبيل المثال : انت تعرف سلفا وبكل تأكيد ان هذا الرجل ـ وهو اشد المواطنين نفعا واحسنهم مركزا ـ لن يقرضك مالا مهما تذرعت باسباب . اذ لـم يقرضك ماله ؟ انه يعرف سلفا انك لن ترد اليه ما تقترضه فهل يعطيك بدافع الشفقة ؟ ان السيد « ليبيزيا تنيكوف » ـ وهو من المطلعين على الآراء الحديثة ـ اوضح مرة ان العلم نفسه ينفي الشفقة ، وان الحال كذلك في بريطانيا حيث يسيطر الاقتصاد السياسي ... كنت اسألك : لم يوافق على اقراضك المال ؟ مع ذلك فانك على الرغم من علمك الاكيد بعقم محاولتك فانك تسير الى هذا الهدف لكي ...

فقاطعه راسكولنيكوف قائلا :

ـ وما فائدة الاستمرار ؟..

ـ ذلك لانه ليس امامك سبيل آخر ، ولانك تميز المكان المناسب عن سواه . المهم ان الحاجة تدفعك الى سلوك سبيل معين . ولسوف يأتي يوم تجد نفسك فيه مكرها عـلى تقرير مصيرك . خذ مثلا : عندما ذهبت ابنتي الوحيدة للمرة الاولى للحصول على بطاقتها . لقـد قمت بنفسي بتدبير يعود علي بالفائدة .. نعم ان ابنتي حصلت علي بطاقة وهي تعيش من هذه المهنة !..

ولما شعر بالغلامين يسخران منه ، وبصاحب الحانـة يشاطرهما

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

السخرية بدوره ، ورأى ان وجه انشاب قد ظللته سحابة من الحزن ، اردف يقول ببرود ظاهر :

ـ لا تبتئس يا سيدي ، لا تبتئس .. فلقد تعودت مثل هذه الهزات من الرؤوس .. ان ما اقوله معروف من الناس اجمعين ، والاسرار جميعها تنكشف آخر الامر ، انني اقابل مثل هذه الامور بالخزي وليس بالاحتقار .. ليكن . نعم ليكن . هذا هو الانسان !

اسمح لي ايها الشاب هل تستطيع .. كلا ، يجدر بي ان أعبر عن رأيي بطريقة اكثر واقعية . لأقل : هل تجرأ بدلا من هل تستطيع .. نعم هل تجرأ ـ بعد ان تمعن النظر في هذه اللحظة ـ ان تقول بالتأكيد انني لست خنزيرا ؟

غير ان الشاب لم يعقب بكلمة .. بينما استرسل الخطيب المفوه بانتظار انتهاء عاصفة الضحك التي اثارتها عبارته الاخيرة في « الصالة »:

ـ حسنا .. لنفترض انني خنزير ولكن هي ! انها سيدة ! انا صورة عن الحيوان ولكن كاترين ايفانوفنا ـ زوجتي ـ شخصية ممتازة .. فهي ابنة ضابط كبير .. نعم لنفترض انني فاسد ولكنها ـ هي ـ تملك قلبا حانيا الى جانب ثقافتها وعواطفها النبيلة ! ومع ذلك .. آه لو انها اشفقت علي يا سيدي .. ان كل انسان يا سيدي بحاجة الى ملجأ يشعر فيه بالحنان والشفقة ! وكاترين جائرة ظالمة رغم شهامتها ونبلها ورغم علمي بانها عندما تنقي البراغيث عن ثيابي كما افعل احيانا بنفسي، فانها لا تعمل ذلك الا بسبب اشفاقها علي ..

تعالت الضحكات مجددا في المكان فاردف يقول وقد علا وجهه الوقار مجسدا :

ـ آه يا الهي .. لو ان مرة فقط .. ولكن لا .. كل ذلك لا

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

يجدي .. فما فائدة الكلام ؟ نعم ما فائدته ؟ انني لم اعامل مرة بحنان . لكن لقد غدا ذلك امرا عاديا بالنسبة الي وغدوت وحشا بالفطرة !

وهنا تدخل صاحب الحانة في الحوار وهتف بعد ان اهوى بقبضته على المنضدة :

ـ وحش فطري .. وأي وحش !

ـ تلك هي طبيعتي ! اتدري يا سيدي .. انني شربت حتى جواربها ولا اقول احذيتها .. لان ذلك يكون غير متناسق مع الوقائع .. اما جواربها .. نعم جواربها فقد شربتها .. وشربت كذلك منديل عنقها المصنوع من شعر الماعز ، وكان قد أهدي اليها قبل زواجنا .. فهو اذن يخصها ولا يخصني .. ونحن نسكن غرفة باردة ... لقد اصيبت بسعال في الشتاء الاخير وها هي الآن تبصق دما .. ولنا ثلاثة اولاد صغار ، وتشتغل كاترين ايفانوفنا من الصباح وحتى المساء ، فهي تغسل الملابس وتنظف الاواني وتعنى بالاطفال لانها منذ حداثة سنها اعتادت النظافة والفتها .. وصدرها ضعيف وقابليته للسل جلية واضحة اشعر بها تماما . وكيف لا اشعر بذلك ؟ انني كلما اكثرت من الشراب ، كلما ازددت احساسا بذلك الخطر . ذلك لانني اكتشف في الشراب استيعابا كبيرا للالم والشفقة . ولذلك اشرب ! انا اشرب لاضاعف ألمي .

ثم احنى رأسه بيأس على المائدة ولبث كذلك برهة لا يريم . ولما استعاد هدوءه اعقب قائلا :

ـ ايها الشاب ، يخيل الي انني اقرأ على وجهك امارات حزن معين ! وقد احسست بذلك منذ ان دخلت ، مما حدا بي الى الاتصال بك . انني باطلاعك على تاريخ حياتي ، لم اقصد تحقير نفسي في اعين هؤلاء الكسالى المتراخين الذين يعرفون ذلك بعد ان استمعوا الي اكثر

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

حين مرة ، ولكنني كنت ابحث عن انسان لطيف حسن التربية لأبثه شكواي . اعلم ان زوجتي تلقت علومها في مؤسسة ارستقراطية جيدة في الاقاليم وقد رقصت عند تخرجها امام الحاكم مرتدية « شالها » وكانت الحفلة تضم عددا من الشخصيات الرسمية .. ولما انتهت ، حصلت زوجتي على شهادتها وعلى « مدالية » ذهبية .. فاما المدالية ، فقد بعناها كذلك منذ زمن بعيد .. اه .. واما « ديلوم » الشرف ، فلا زالت تحتفظ به الى اليوم في صندوق . وقد أطلعت عليه مؤخرا صاحبة المسكن الذي نقطنه .. نعم .. لقد أطلعتها عليه رغم مشاحناتها المستمرة معها . ذلك انها كانت في حاجة الى التباهي امام بعضهم ، فعمدت الى ذكرياتها الماضية تحييها . وانا لا اثقل عليها ، نعم لا اثقل عليها ، لان ذكرياتها القديمة هي كل ما بقي لها الآن . اما ما تبقى فقد تبدد كالسحاب .. نعم .. نعم ، انها سيدة غضوب متباهية وصعبة المراس . فهي تغسل ارض مسكنها بيدها وتقنع برغيف من الخبز الاسود . لكنها لا تتزحزح قيد انملة امام الامور التي تتعلق بالاحترام والكرامة . لذلك لم تحتمل سماجة السيد ليبيزيا تنيكوف . فلما ضربها هذا بسبب ذلك ، لازمت فراشها متأثرة بالاهانة التي لحقت بها اكثر من آلام الضرب الذي نالها . لقد كانت ارملة لما تزوجتها وكانت اما لثلاثة اطفال صغار . وقد تزوجت للمرة الاولى — بدافع الميل — ضابطا من سلاح المدفعية هربت معه من بيت ذويها . كانت تحبه حبا جنونيا ، ولكنه سقط فريسة المقامرة ، فحوكم بسبب ذلك ومات على اثر المحاكمة . لقد كان يضربها في ايامه الاخيرة وعلى الرغم من انه لم يترك لها شيئا عند وفاته ، فانها لا زالت تذكره اليوم وملء عينيها الدموع ! انها تذكره كلما ارادت ان تقارن بيني وبينه لتشعرني بما انا عليه،وانا مسرور من ذلك لانه يتيح لها بهجة التخيل والتذكر .. ولقد ظلت بعد وفاته وحيدة مع اطفالها الصغار في اقليم ناء مجهول حيث التقيت بها اول مرة . كانت في فاقة

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

مستحكمة لا استطيع وصفها لك على الرغم من انني تذوقت كل انواع العوز •• وكان ذووها جميعهم منصرفين عنها مغفلين امرها ، مع ذلك فقد كانت فخورة ابدا معتزة بنفسها •• وعندئذ يا سيدي تقدمت انا ، وكنت ارملا بالمثل ، ولي من زوجتي الاولى فتاة كانت في الرابعة عشرة من عمرها ! طلبت يدها لانني ما كنت استطيع تصور مثل ذلك الالم الهائل ينزل بسيدة مثلها •• لك ان تحكم بنفسك الى أي مدى بلغت بها الفاقة حتى قبلت ان تتزوجني ، وهي المهذبة المثقفة سليلة الاسرة العريقة •• المهم انها قبلت بي وهي تبكي وتنتحب وتلوي يديها ألما • ذلك لانها لم تجد لنفسها مخرجا آخر ! انت تدرك ماذا اقول •• انت تفهم ما اعني بكلمة : لم تجد لنفسها مخرجا •• ام تراك لم تفهم بعد المعنى ؟ كلا •• انك لم تفهمه بكذا ! لقد قمت بواجباتي حيالها طيلة عام كامل بشرف وامانه دون ان اقترف ذنبا (واشار بيده الى زجاجة الشراب) لانني افهم معنى العواطف • غير أنني لم أوفق في تحريك عواطفها •• وبما انني كنت عاطلا بين حين وآخر دونما سبب أللهم الا الدواعي الادارية البحتة ، فقد شغفت بالشراب •• وقد مضى علينا عام ونصف منذ أن جئنا نسعى في هذه العاصمة البديعة المزينة بعدد كبير من الابنية الضخمة • اننا لم نصل الى هنا الا بعد اغتراب ومصائب لا تحصى •• فوجدت هنا عملا ما لبثت أن فقدته كالعادة •• ولكن ليكن معلوما لديك أنني فقدت عملي بخطيئتي هذه المرة لأن طبيعتي الفطرية انتصرت على تطبعي •• اننا نعيش اليوم في كوخ حقير تمتلكه أميلي فيودوروفنا ليبويشسل • أما كيف نعيش ومن أين ننفق وكيف نقتات •• فذلك ما لا أعلمه ! ••

ان في الدار التي نقطن غرفة منها « عددا من المستأجرين الاخر •• وكأننا في « كفر نعوم (١) » حقيقة •• نعم ! •• وكانت ابنتي من

---

(١) كفرنعوم مدينة من مدن — فلسطين الشمالية — ، ويقصد المؤلف تشبيه الدار بالمحشر لكثرة سكانها ، — المترجم —

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

زوجتي الاولى تنمو مع الزمن . أما ما عانته من « خالتها » زوجتي خلال أعوام نموها ، فانني أفضل أن لا أخوض فيه . لأن كاترين ايفانوفنا ، رغم أنها تفيض بالشعور والرقة ، ألا أنها لا تخرج عن كونها سيدة قاسية سريعة الغضب . أقول لك هذا فقط ، اذ ماذا يجدي البحث في مثل هذه الامور !.. لم تتلقَ ابنتي سونيا شيئا من الثقافة كما لا بد خمنت .. ولقد حاولت منذ اربع سنين أن أعلمها بعض التاريخ العام والجغرافيا ، غير أنني توقفت عن متابعة هذا النشاط لأنني شخصيا ضعيف في هذه المواد ولأن الكتب اللازمة لاستدراك هذا الضعف تنقصني .. آه ماذا أقول .. ان مثل هذه الكتب المفيدة لم يعد لها وجود ! اذن فقد توقفنا عند سيروس ملك الفرس ..

ولما شبت ابنتي وبلغت الرشد ، قرأت بعض المؤلفات الروائية .. ولقد أعارها السيد ليبيزيا تنيكوف مؤخرا كتابا عنوانه : (فيزيولوجية لويس) . أتعرفه ؟.. لقد قرأته بشغف عظيم . بل أنها التهمته التهاما ، وكانت تقرأ لنا أحيانا بعض الفقرات منه بصوت عال .. ذلك هو كل ذخرها الذهني ! والآن انني أتوجه اليك يا سيدي لألقي عليك سؤالا بصورة خاصة جدا :

« هل تستطيع فتاة فقيرة ولكن متعففه ان تربح شيئا مذكورا من عمل شريف » ؟ لا .. انها لن تربح اكثر من خمسة عشر « كوبيكا » في اليوم اذا كانت شريفة وليس لديها مؤهلات خاصة .. نعم خمسة عشر « كوبيكا » وعلى شرط أن لا تغفل عن العمل دقيقة واحدة ! وقد نالها من مستشار ولاية « كلوبستوك » ايفان ايفانوفيتش ما لا يسر ! أتعرفه؟ لعلك سمعت به ! حسنا .. ان هذا الرجل اللامع لم يكتف بان تمنع عن دفع أجرة قمصانه الستة المصنوعة من القماش الهولندي الفاخر والتي خاطتها له ، ولكنه طردها ايضا وهو يشتمها ويغلظ لها القول ، وقد

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

وكلها بقدمه وأطلق عليها كل الاسماء التي اسعفته بها قريحته . محتجا بأن يافة واحدة من القمصان لم تكن مصنوعة بدقة وأنها فصلت بشكل خاطىء .. كل هذا بينما الصغار يتلوون جوعا .. وأمهم كاترين ايفانوفنا لا تنفك تذرع غرفتنا وهي تعصر يديها وعلى خديها لطخات حمراء من بوادر ذلك المرض المخيف ! كانت تصيح بها مغضبة قائلة : « أيتها الكسول .. أولا تأكلين وتشربين وتتدفئين ؟ » .. ولكن قل لي بربك ماذا تأكل المسكينة وماذا تشرب اذا كان الصغار لم يجدوا منذ ثلاثة ايام ما يمضغونه في افواههم الجائعة ؟.. نعم .. لقد نمت دون ان أحاول اسكاتها .. ولم أسكتها ؟ لقد كنت ثملا واقرب الى انسان ميت مني الى مخلوق حي .. كنت اسمع « سونيتي » تتكلم . انها هادئة كثيرة الاحتمال فكانت تتكلم بصوت عذب .. وهي شقراء ولها سحنة شاحبة دائما هزيلة ابدا ..

كانت تقول : « ما العمل يا كاترين ايفانوفنا ؟ هل من المعقول أن أزاول مثل هذه المهنة ؟.. غير ان « داريا بافلوفنا » ـ وهي امرأة سيئة السمعة معروفة لدى رجال البوليس ـ عاتبتها اكثر من مرة لاستنكارها مثل هذا الامر مدفوعة من قبل صاحبة المسكن !.. لذلك فقد أجابتها كاترين ايفانوفنا بلهجة تشوبها السخرية قائلة : « يا الهي .. هذا كنز جدير أن يحتفظ المرء به .. » .. كلا . لا تلمها على هذا يا سيدي لا تلمها ! فهي لم تكن مالكة اعصابها عندما تفوهت بتلك الكلمات .. فلقد كانت عواطفها مهيجة ، وكانت في اقصى حالات الحنق والغضب . انها مريضة وامامها اطفالها يبكون من الجوع ويصرخون ! لم تتفوه كاترين ايفانوفنا بتلك الكلمات الا لتسفه الحجة التي تذرعت بها ابنتي .. وتلك هي عقليتها .. فهي تضرب الأطفال عندما يبكون ولو كان بكاؤهم بسبب الجوع .. لانها تفقد اعصابها اذا غضبت وثارت !

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة .. واذا بسونيا تنهض واقفة وتتشح « بلفحتها » ثم تخرج من الغرفة .. لم تعد قبل الثامنة فاتجهت بسكون الى حيث كانت كاترين ايفانوفنا ووضعت امامها على المائدة ثلاثين روبلا .. ودون أن تنبس ببنت شفة ، اخذت الدثار الكبير الاخضر (وقد فاتني أن أقول لك أن لدينا واحدا نستعمله جميعا حسب الحاجة وهو من قماش « المدام ») فلفت به رأسها وجسدها وتهالكت على السرير ووجهها الى الجدار .. بينما كان كتفاها الناحلين وجسدها الهزيل مسرحا لقشعريرة وتشنجات تفصح عن سريرتها ! كنت انا على حالي من السكر ، مستلقيا كما كنت .. فرأيت ايها الشاب ، نعم رأيت كاترين ايفانوفنا تنهض بسكون ايضا وتتجه نحو سرير ، «سونيتي» الصغيرة .. هناك ركعت على ركبتيها واستمرت طيلة الامسية راكعة بقربها تقبل اقدامها دون فتور ولا توقف .. ولقد نامت بقربها وعانقتها .. نعم لقد نامتا كلتاهما بينما كنت انا متهالكا مخمورا ..

صمت مار ميلادوف وكأنه فقد النطق وملأ قدحه بسرعة وأفرغه في جوفه دفعة واحدة فندت عن حنجرته فرقعة مكتومة ثم أعقب يقول :

ـ .. ومنذ ذلك الحين يا سيدي اضطرت ابنتي صوفي سيميونوفنا ان تقتني بطاقة لمزاولة مهنتها . وبسبب ذلك لم تستطع البقاء عندنا فغادرت المنزل . اما كيف وقع ذلك فان الامر في منتهى السهولة . ذلك انه اثر ملابسة مزعجة ، وبناء على اخبار من بعض المغرضين ساهمت فيه « داريا فرانتزوفنا » بقسط وافر بحجة اننا أسأنا في تقديرها وتقديم آيات الاحترام الواجبة علينا حيالها ، احتجت صاحبة الدار التي نقطنها على سلوك ابنتي وادعت انها لا تحتمل وجودها فيدارها على الرغم من انها دفعت داريا من قبل للتأثير عليها .. وهكذا انتقلت ابنتي من حال الى حال .

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

ثم جاء السيد ليبيزيا تنيكوف الذي .. آه .. كان لـه ذلـك الموقف مع كاترين ايفانوفنا .. كان ذلك بسبب سونيا . لقد كـان في البداية يلتمس من سونيا التفاتة غير انه ما لبث حتى راح يبـدي صدودا واعراضا وتذمرا . كان يقول : « كيف استطيع العيش في منزل يضم هذا العار وأنا ذلك الرجل النير المعروف » .. غيـر ان كاترين ايفانوفنا لم تسكت ازاء هذا الادعاء الفارغ .. بل صمدت له وقاومته ومن هنا كان ما حصل لها على يده ! اما « سونيتي» الصغيرة فانها تزورنا غالبا عند هبوط الظلام ، فتساعد كاترين ايفانوفنا وتقدم لها ما يلزمها .. وهي تقطن عند الخياط كابيرناوموف الذي اجر لها غرفة خاصة . وهذا « الكابيرناوموف » اعرج وألكن .. وله عائلة ، وابناؤه جميعهم ورثوا عنه عاهته النطقية وكذلك زوجته .. فهي لكناء مثله ، وكلهم محشورون في غرفة واحدة . غير ان لسونيا غرفتها الخاصة التي يفصلها عن غرفة الاسرة حاجز من الخشب .. نعم .. انهم اناس فقراء جدا وتمتامون .. نعم . وذلك الصباح ، نهضت من فراشي وارتديت اسمالي ثم اتجهت الى حيث يقيم صاحب السعادة ايفان آثانا سيفيتش بعـد ان رفعت ذراعي الى السماء مبتهلا . على فكرة .. هل تعرف صاحب السعـادة ايفان آثانا سيفيتش ؟ كلا ؟.. انك اذن لا تعرف رجلا ورعا .. انـه شمعة بكر « شمع كافوري » نصبت امام الرب ! والشمـع يذوب .. نعم ولكن هذا ذاب دمعا بعد ان استمع الى ما عندي مـن القول .. وقال لي بالحرف الواحد : حسنا يا مارميلادوف .. لقد خذلت آمالي في المرة الاولى ، غير انني سأعيـدك الى العمـل على مسؤوليتي الشخصية فاذكر ذلك .. هيا يمكنك ان تنسحب ! » ولقد قبلت آثار إقدامه .. بالخيال طبعا .. لانني لو اردت عمل ذلك فعلا لما سمح لي به . لان هذا الرجل رفيع الشأن من انصار المبادىء الرسمية الجديدة فيما يتعلق بالتربية والمعاملة .. وعدت الى مسكني . ولا تسل عـن

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

الهياج الذي حصل حينما اعلنت انني سأعود للعمل ولقبض المرتب !

طغى انفعال عنيف على ماريلادوف فتوقف عن متابعة حديثه .. وفي تلك الاثناء ، دخلت شرذمة من السكارى الى الحانة بصخب وضجيج وعلى العتبة ارتفعت انغام متباينة من ارغن استؤجر لهذه المناسبة ولا شك ، بينما راح طفل في السابعة من عمره يرفع عقيرته مغنيا « المزرعة الصغيرة » .. وعم الصخب في « الصالة » بينما تهافت المعلم واجيراه لخدمة الزبائن الوافدين ! وتابع مارميلادوف قصته دون ان يعبأ بالضجيج :

كان يبدو عليه الانهيار التام الا انه كلما ازداد الثمل نيلا منه كلما قويت رغبته في الحديث والثرثرة .. وبدا وجهه منيرا لمجرد ان تذكر انه توصل الى استعادة عمله .. وكان راسكو لنيكوف يصغي اليه بانتباه ..

.. « مضى على ذلك خمسة اسابيع يا سيدي .. نعم .. خمسة اسابيع منذ ان بلغ نبأ عودتي الى العمل مسامع كاترين ايفانوفنا وابنتي الصغيرة . كنت كمن انتقل الى النعيم في حين انني كنت من قبل مهملا ككلب حقير ، لا اسمع الا الشتائم والسباب .. اما في ذلك الحين فقد كانوا يمشون على اطراف اصابع اقدامهم اذا كنت نائما ويوصون الاطفال بالسكوت والخلود الى السكينة .. « عاد سمعان زاخاريتش تعبا وهو الان يستريح فصمتا .. » وكانوا يقدمون الي القهوة قبل ذهابي الى المكتب ويسخنون « الكريما » .. نعم « الكريما » الاصلية الحقيقية ! لقد استطاعوا اخيرا ان يأتوا بها وان يجدوا احد عشر روبلا ونصفا لتجديد ملابسي وصيانة مظهري .. اما اين وجدوا هذا المبلغ فذلك ما لا اعلمه .. كل ما اعرفه هو انني امتلكت احذية جديدة وقميصا من القطن وثوبا كاملا انيقا كل ذلك بأحد عشر روبلا ونصف ..

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

فبدوت على اكمل واحسن ما يمكن ان اكون .. ! وكنت عند عودتي الاولى من المكتب الاحظ ان كاترين ايفانوفنا قد هيأت طبقين لتتناول الطعام : حساء ولحم بقر مملح ببراعة .. الشيء الذي لم اره ولم اعهد مثله من قبل . كانت من قبل لا تملك ثوبا ترتديه ، اما ذلك الحين فقد ظهرت على احسن زينة وكأنها ذاهبة لزيارة بعضهن .. لقد تجدد العتيق القديم على شكل من الاشكال لان لها موهبة عمل كل شيء من لا شيء.. كانت معتنية بشعرها تبدو انسانا آخر بياقتها الصغيرة البيضاء واكمامها النظيفة . لقد بدت اصغر سنا واوفر جمالا .. وكانت سونيتي الصغيرة العزيزة تكتفي بتزويدنا بالمال وهي تقول : «لن استطيع التردد عليكم بكثرة في الوقت الحاضر لان ذلك غير ممكن في هذا الظرف.. سوف احضر عند هبوط الظلام ولن يراني احد هل تسمعون ؟ ! »

اويت الى فراشي ذلك المساء مبكرا فلم تعترضني كاترين ايفانوفنا ! هل تصدق هذا؟ ولم يكن قد مضى على اشتجارها مع اميلي فيودوروفنا اكثر من ثمانية ايام . مع ذلك فقد دعتها لتتناول القهوة ومكثنا معا حوالي ساعتين .. وقد سمعتهما تتهامسان : « نعم .. ان سيمون زاخاريتش قد استعاد عمله وهو يقبض مرتبه من جديد .. لقد تقدم بنفسه الى صاحب السعادة فجاء سعادته بنفسه ليقود سيمون زاخاريتش من يده على مرأى من الآخرين ويدخله مكتبه . » فهل سمعت هذا ؟ هل سمعت ؟.. واضافت زوجتي تقول : « لقد قال له سعادته : لا شك يا سيمون زاخاريتش انني اذكر خدماتك التي سبق ان اديتها لنا وعلى الرغم من ميلك الى الخمر فانني بناء على وعدك لي بالاقلاع عن تلك العادة ونظرا لعدم الاستغناء عنك (هل سمعت هذا . هل سمعته ؟) فانني آمل الآن ان تبر بكلمتك . »

نعم . انني اعترف لك بانها ابتكرت كل هذا من عندها وسوته

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

وانضجته ليبدو معقولا . فلا تظنين بان ذلك كان مجرد عبث يقصد منه الظهور . كلا . لقد انساقت هي نفسها وراء تخيلاتها .. كانت هي نفسها تتعزى بهذا القول واشهد الله ! ولست ألومها كلا لست ألومها من اجل ذلك .. اذكر انني عندما اتيتها منذ ايام بمرتبي الاول ــ ثلاثة وعشرون روبلا واربعون (كوبيكا) ــ كاملا دون نقصان ، دللتني بعبارات عذبة ولعلك تفهم معنى ذلك التدليل اذا اوضحت لك اننا كنا منفردين هي وانا لا يعكر صفونا وجود احد ! نعم .. لقد دللتني وهي تغمز خدي بأناملها بصوت عذب : « آه يا ملفوفتي الصغيرة ! .. »

توقف مارميلادوف برهة وبدا كأنه يحاول الابتسام بدلالة الرعشة التي اجتاحت ذقنه . ثم تمالك نفسه .

كان ذلك الوسط : الحالة وذلك المظهر الفاسق الليالي الخمس التي قضاها في زورق للعلف ، ومنظر الزجاجة اضافة الى الحب العميق الذي يكنه ذلك الرجل لاسرته ، كل هذه الاشياء كانت تذهل جليسه الشاب الذي كان يصغي مأخوذا وكأنه استحال الى اذان ... بيد انه لم يتخلص من شعور التبرم والنقمة : لقد نقم على نفسه لانه ارتاد وسطا كذلك الوسط !

هتف مارميلادوف مسترسلا :

ــ عزيزي السيد ، عزيزي السيد ، لعل كل هذا يدعوا الى الضحك مع انني لا اني اعرض على مسامعك ، مآسي العائلية الشخصية ! اما بالنسبة فانني لا ارى في كل ذلك ما يضحك . لانني قادر على استعادة التجسس بكل ما قلته لك ... لقد كنت مستسلما لحلمي الذهبي طوال ذلك اليوم وامسيته الفردوسية ! كنت احلم في اعادة بناء اسرتي وكساء اولادي كنت اتوقع ان اجلب الهدوء الى نفس زوجتي واتطلع الى انتزاع ابنتي من الوهدة التي تردت فيها واعادتها الى حظيرة الاسرة ..

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

كنت احلم بأشياء اخرى كثيرة .. نعم .. كنت استطيع التفكير بحرية في كل هذا لانه ميسور للانسان مباح له .

وفجأة انتفض مارميلادوف ورفع رأسه يحدق في وجه زميلـــه الجديد ... ثم قال :

ـ ومنذ صباح اليوم الثاني وبعد كل هذه الاحلام الجميلة وعلى الدقة منذ خمسة ايام فقط ، سرقت من زوجتي كاترين ايفانوفنا مفتاح صندوقها بحيلة بارعة شأن اللص المدرب.واستوليت على رصيد راتبي الذي كنت اعطيته لها وها انت ذا تراني اين جئت .. بـل انظروا الي جميعكم لقد غادرت منزلي منذ خمسة ايام وهم يبحثون عني هناك ولا شك ! ولقد فقدت مركزي وشربت نعم شربت بذلتي الجديدة بعد ان استبدلتها بهذه الاطمار البالية في حانة بالقرب مـــن جسر « مصر » وانتهى كل شيء !

لم يكد مارميلادوف يصل الى هذا الحد من حديثـه حتى ضرب جبهته بقبضته وصرف على اسنانه واغلق عينيه ثم مـال بمرفقيه بقوة على المائدة . لكن ذلك لم يدم اكثر من خمس دقائق عاد بعدهـــا الى مطارحة زميله الحديث نظر اليه بعين لم تخل من خبث مصطنع وقـال وهو يبتسم :

ـ لقد كنت اليوم عند سونيا وطلبت منها مـالا لأثمـــل ... ها ها ها ...

صاح واحد من افراد « الشلة » الذين دخلوا الحانـة يقول : ـ وهل اعطتك ؟ واشفع سؤاله بقهقهة مجلجلة ! غير ان مارميلادوف لـم يلتفت الى المتكلم بل وجه حديثه الى راسكولنيكوف وقال :

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

ـ هذه الزجاجة اشتريتها من المال الذي اعطتنيه ! لم تكن تملك الا ثلاثين « كوبيكا » لقد تأكدت من ذلك بنفسي فاعطتها لي دون ان تهمس بكلمة .. لقد اكتفت بالنظر ولكن ليس كما ينظرون هنا .. بل انها كانت نظرة علوية لا يحسنها الا الذين يؤمنون بان الرجال لا يستثيرون الا الشفقة ولا يستحقون الا البكاء من اجلهم وليس اصدار الحكم عليهم ! ولعمري ان ذلك يعادل ابلغ الحزن لما لا يوجه اليك اي تثريب ! نعم .. ثلاثون « كوبيكا » اخذتها راضيا رغم حاجتها اليها . ألست من هذا الرأي يا عزيزي ؟ انها الآن احوج ما تكون الى النظافة ومتطلباتها ؟ وتلك النظافة تكلف ثمنا معينا وانت تفهمني ولا شك ! فهناك المراهم والادهان التي يجب شراؤها والتي لا يمكن عمل شيء بدونها .. هناك الملابس الانيقة والاحذية الجميلة الثمينة التي تصون الاقدام من برك الماء التي تعترض طريقك . انت تفهم ولا شك يا سيدي وتدرك ما معنى الحفاظ على النظافة !

اذن ما قولك وانا ابوها اسلبها الثلاثين « كوبيكا » التي لم تكن تملك غيرها ولأي شيء ؟ لاعاقر الخمر وانهل من الشراب !.. هل في الدنيا من يشفق على مثل ذلك الرجل الذي هو انا ؟ قل بربك هل تشفق على مثلي ؟ اجب بنعم ، او لا .. هل تشفق علي الآن يا سيدي؟ قلها ولا تخف ، هل تشفق ؟.. نعم او لا .. ها ها ها ها .

اراد بعد ذلك ان يرتشف جرعة جديدة ولكنه لم يجد في الزجاجة شيئا .. كانت الزجاجة قد فرغت .

صاح به صاحب الحانة وكان قد عاد الى مكانه قريبا منهما :

ـ ولم يشفق على مثلك ؟

ودوت ضحكة صاخبة مصحوبة بشتائم وسباب . ذلك ان الذين لم يكونوا قد استمعوا الى تلك المناجاة ، كانوا يصرخون لا لشيء الا

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

للنيل من الموظف السابق والتسلي على حسابه .

وزأر مارميلادوف فجأة وهو ينهض قائلا :

ـ الشفقة ؟ ولم الشفقة ؟

كان منتصبا وذراعاه مرفوعتان كان فريسة حماس واندفاع شديدين كان يتحدث كما لو لم يكن قد سمع بتلك الكلمات من قبل .

ـ لم يشفق علي؟ أهذا ما قلته؟ انك على حق فانا لا اوحي بالشفقة علي .. على العكس ينبغي ان اصلب نعم ان اصلب على صليب وليس ان يرثى لحالي ! ولكن اصلبوني بعد ان تحاكموني واشفقوا علي قليلا وانتم تصلبونني وعندئذ سأمضي الى عقابي لانني لست مشوقا للسرور بل انني في شوق للالم والدموع وانا متعطش اليهما فهل تظن ـ ويحك ـ ان نصف الزجاجة التي قدمتها الي قد خففت ما بي ؟ لقد بحثت في اعماقها عن الالم .. الالم والدموع هذا ما انا بسبيل البحث عنه فيها ! فلما لمستها بشفتي وجدت ما اريد ! ولسوف يرحمني من يشفق على الناس اجمعين .. ذلك الذي يفهم كل شيء ! انه الاحد .. هو القاضي العادل .. ولسوف يظهر يوم الدينونة وسيقول : «اين هي تلك الفتاة المسكينة التي ضحت بنفسها من اجل « خالة » لها مصدورة ؟ ضحت بنفسها لتساعد اطفالا لم يكونوا اطفالها ! اين هي تلك الفتاة التي اشفقت على ابيها في الارض، ذلك السكير الكريه دون ان تتنكر له بقسوة وتقزز !» .. ولسوف يقول لها : « تعالي ! لقد عفوت عنك مرة .. المرة الاولى .. ولسوف اسامحك واعفو عن خطيئاتك التالية لانك احببت بعنف » ولسوف يعفو عن « سونيتي » نعم سوف يعفو عنها انا اعرف انه سيعفو عنها .لقد احس قلبي بذلك منذ ان كنت عندها منذ حين !.. لسوف يحاكم الجميع . نعم الجميع دون استثناء ولسوف يصفح عنهم جميعا : عن طيبهم وخبيثهم شرسهم ولطيفهم .. وعندما ينتهي منهم جميعا ، لسوف يستدعينا نحن ايضا !

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

وسيقول لنا : « هيا اقتربوا انتم ايضا • تعالوا ايها الخاطئـــون » ! وسوف تتقدم جميعا دون خجل وسيقول لنا : « ايها الخنـــازير ! ان صورتكم تشبه صورة الحيوان وانتم تحملون طابعه ! ولكـــن اقتربوا مع ذلك ! » وسوف يهتف الهادئون العاقلون : « رباه •• كيف تتقبل هؤلاء ايضا » فيجيبهم : « يا معشر العقلاء الهادئين ، اذا كنت اتقبلهم فذلك لانهم جميعا لم يتوقعوا يوما ان يصبحوا من المنبوذين واهـــل الجحيم ! » •• ونسوف يفتح لنا ذراعيه بعد ذلك فنرتمي بينهما ونبكي ونفهم كل شيء ! حتى كاترين ايفانوفنا نفسها ستفهـم ! ربـــاه •• ليأت ملكوتك !

استنفذ المسكين قواه وهو يلقي موعظته المؤلمة على مقعده تاركا منهوكا دون ان ينظر الى احد وكأنه نسي كل من حولـــه وانغرق في بيداء التفكير ! احدثت اقواله تأثيرا خاصا في النفـــوس فساد السكون عم خلال فترة من الزمن ولكنه سكون راحت تمطر بغـــده الشتائم على المتكلم وتغرقه الضحكات فمن قائل !

ـ احسنت في خطبتك !

الى آخر يعقب بقوله : ـ انه يهذي •• وثالث يصيح : ـ يا لك من موظف صغير حقير ! وهكذا ••

فرفع مارميلادوف رأسه فجأة واهاب بزميله قائلا :

ـ هيا لنخرج يا سيدي •• رافقني •• انني أقطن في دار «كوزل» في نهاية الباخة لقد حان الوقت فهيا الى حيث كاترين ايفانوفنا !

لم يكن راسكولنيكوف بأقل منه لهفة على الرحيل فقد كان يفكر منذ برهة في مساعدة مارميلادوف الذي برهن على ان لسانه اقوى من ساقيه اللذين ما كانا يعاونانه على الوقوف مما جعل مهمة راسكولنيكوف عسيرة !

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

كانت المسافة التي يتحتم عليهما اجتيازها تتراوح بين مـائتين وثلاثمائة خطوة فكان كلما اقترب الثمل من المكـــان المنشود كلما اكتسحت كيانه الرهبة والمهابة .. راح يقول لمرافقه باتضعال :

ـ لست اخشى كاترين ايفانوفنا في هذه اللحظة..لا ولا ان تجذب شعري وتقتلعه اذ ماذا يهمني ان تقتلع شعر رأسي ؟ بل انني اؤكد انه من الضروري ان تفعل ذلك . كلا ليس ذلك ما اخشاه في هذه اللحظة ولكنني اخاف من عينيها .. نعم عينيها ومن اللطخات الحمراء التي تزين خديها واخاف ايضا من تنفسهـا .. ترى هل شاهدت من قبل كيف يتنفس المصابون بذلـــك المرض ؟ خصوصا عندما يستهدفون لمشاكسة او احتدام جدال ؟.. انني اخاف كل هذا واخـــاف سماع صوت الاطفال وهم يبكون لانني لا أعرف ماذا سيكون حالهم اذا كانت سونيا لم تأتهم بما يأكلون .. اما الضرب فلست اخافه واعلم يا سيدي ان ذلك الضرب لا يؤلمني بل على العكس انه يهيء لي احيانا لونا مـن اللذة لا قدرة لي شخصيا على الاستغناء عنها ! انـــه خير .. نعم من الخير لي ان تنفحني « علقة » ترفه بها عن نفسها .. ذلـك افضل ولا شك .. والآن ها هي الدار .. بيت « كوزل » ان صاحبها الماني غني مهنته صانع اقفال .. هيا قدني !

اجتاز الزميلان الباحة وراحا يتسلقان الطبقات الاربعة التي تفصلهما عن غرفة كاترين ايفانوفنا .. فكانوا كلما امعنـوا في الصعود ازداد الظلام حلكة ..

كانت الساعة تشرف على الحادية عشرة وعلى الرغم من أن الليـــل في بترسبورغ لا يكون ليلا بالمعنى الحقيقي في مثل ذلك الوقت مـن العام ، الا ان ذلك لم يمنع العتمة من ان تخيم على أعلى السلم !

كان الباب الحائل اللون الذي يشرف على نهاية السلم من الاعـلى

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

مفتوحا ، وكانت هناك ذبالة تضيء غرفة حقيرة جدا لا يتجاوز طولها عشر خطوات ، وكان يمكن رؤية كل ما فيها من «بسطة» السلم فاذا بالفوضى تعمها ..

كان كل شيء فيها مهملا منثورا وعلى الأخص ألبسة الاطفال . وفي احدى الزوايا نشر دثار بال تملؤه الثقوب كان يخفي وراءه ولا شك سريرا . اما في الغرفة فلم تكن العين لتقع على كرسيين وديوان محطم يغطيه قماش من «المشمع» في حالة سيئة جدا ! وامام الديوان انتصبت طاولة مطبخ مصنوعة من خشب الصنوبر لم يكن يغطيها طلاء ولا غطاء ! وعلى ركنها كانت شمعة مضاءة تلفظ انفاسها في شمعدان من الحديد . كان مارميلادوف يشغل غرفة خاصة تشكل هذه ممشى لها وكان الباب المؤدي الى تينك الغرفتين ـ على ما في هذه الكلمة من استعارة جريئة ـ مواربا وكانت تنبعث من ورائه صرخات وصيحات.. كان هناك من يضحك ويقهقه كما هو حال الذين يلعبون الورق ويحتسون الشاي ويتسامرون! فكان يمكن التقاط بعض الكلمات دون ان يكون لها مؤدى واضح !

تعرف راسكولنيكوف فورا على كاترين ايفانوفنا . كانت امرأة شديدة النحول دقيقة القوام متوسطة الطول متناسقة التكوين . كانت تحتفظ بشعرها الكستنائي البديع ولكن خديها كانا أقرب الى لطختين لشدة احمرارهما . كانت تذرع غرفتها جيئة وذهابا ضامة يديها الى صدرها متصلبة الشفتين ، تتنفس تنفسا قصيرا متقطعا وكانت عيناها تلتمعان من الحمى لكن نظراتهما كانت حادة قاسية فكان الناظر اليها تحت ذلك الضوء المتذبذب الخافت يحس بما يشيعه ذلك الوجه المحموم بفعل السل من اسى في النفس . خمن راسكولنيكوف سنها فاعطاها ثلاثين ربيعا فكانت والحالة هذه لا تشكل مع مارميلادوف

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

زوجا متجانسا ..

لم تكن قد سمعت صوت خطى الوافدين ولم تكن قد رأتهما .. اذ كانت مستغرقة في خواطرها لا تسمع ولا ترى ! وكـــان جو الحجرة خانقا مع ذلك لم تكن النافذة مفتوحة وكانت تنبعث رائحـــة عفـن شديدة من السلالم مع ذلك لم يكن الباب المؤدي اليها مغلقا .. وكانت سحابة من دخان السجاير تكتـــح غرفتها من الغرفة المجـاورة فيشتد سعالها ومع ذلك لم تكن مغلقة ذلك الباب الذي كانت تنبعث مـــن ورائه تلك السحب ! وكانت صغرى الفتيات ولها من العمر ست سنين، نائمة على الارض بل قل منكفئة على الارض منطوية على نفسهـــا ورأسها متكيء على الديوان . أما الطفل ــ وكان اكبر من أخته بعـام واحد ــ فقد كان يرتجف في زاوية الغرفة وهو ينتحب .. لا شك انها كانت قد فرغت للتو من ضربه ! وأما البكر وهي في التاسعة من عمرها، طويلة القامة بالنسبة الى سنها ، رقيقة كعود الثقاب ، فكانت شبه عارية الا من قميص مهلهل ممزوق وعلى كتفيها العاريتين دثار مـن الصوف ادخلت عليه الام تعديلات كثيرة لم تستطع برغمها ان تجعـــله يبلغ ركبتيها .. كانت واقفة في زاوية الغرفة تضم الى صدرها أخاهـــا الاصغر وتطوقه بساعدها العاري الهزيل الضامر كانت كأنها تهمس في اذنيه بكلام يمنعه من معاودة البكاء بينما كانت هي ترتعد هلعا وتتابع أمها بعينيها الداكنتين الكبيرتين اللتين كانتا تبدوان أكثر اتساعـا في محجريهما من ذلك الوجه الذي يكسوه الرعب العنيف .

لم يدخل مارميلادوف الى الغرفة بـــل جثا على ركبتيه ودفـــع راسكولينكوف الى الامام . فلما ابصرت المرأة بذلك الغريب يدخـل غرفتها توقفت ساهمة امامه وقد انتشلها دخوله المفاجيء من شرودها .. وحاولت أن تفسر سبب وجوده فظنت أنه يقصد الغرفة المجـــاورة خصوصا وان غرفة مارميلادوف كانت تستعمل كمدخل لها . فلمـــا

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

بلغت من تفكيرها هذا الحد اتجهت نحو الباب الاخر لتفتحه لـه دون ان تعيره التفاتا . غير أن نظرها وقع فجأة على زوجها ورأته جاثيا على ركبتيه امام العتبة فندت عن صدرها صيحة غضبي وهتفت وقد أعماها الغضـب :

ـ آه .. ها قد رجعت .. أيها اللص .. أيها الوحش . أين المال ؟ ماذا في جيبك ؟ أرني ! ان هذا ليس ثوبك فأين ذلـك الثوب ؟ أيـن المـال ؟ تكلم ! .. وارتمت عليه تفتشه .. فأبعد مارميلادوف ذراعيه بسكون واستسلام ليساعدها على اتمام مهمتها . لم تجد في جيبه ولا « كوبيكا » واحدا !

صاحت به :

ـ ماذا عملت بالمال اذن ؟ آه يا ربي .. هل يمكن ان تكون قـد ثملت به كله ؟ لقد كان في الصندوقة اثنا عشر روبـلا قبل أن تسطو علـهـمـا ..

وفجأة استبد بها الغيظ والغضب فأمسكت بشعره وجذبته بكل قواها الى الغرفة بينما كان ـ هو ـ يسهل عليها تلك المهمة في حدود طاقته مستجيبا لها محاولا اللحاق بها على ركبتيه وهو عـلى جثوه ! وبينما كانت زوجته تهزه من شعره بعنف وتضرب رأسه بأرض الغرفة ! كان هو يردد موجها الكلام لرفيقه :

ـ ان هذا يفيدني يا سيدي ! انه لا يؤلمني .. واستيقظت الصغيرة التي كانت نائمة على الارض وراحت تصرخ باكية معولة ولم يتمكن الطفل الذي الى جانب أخته الكبرى من مقاومة خوفه اكثر من ذلـك فانخرط هو الاخر في بكاء مرير وازداد التصاقا باختـه التي كانت بدورها ترتعد من الرعب فكانت ترتجف كورقة في مهب ريح عاتية !

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

كل ذلك والمرأة ما فتئت تصيح يائسة :

ـ لقد انفقه كله على الشراب .. لقد شربه كله ! وهذا الثوب ليس ذاك الذي اشتريته له.. رباه لقد سقطنا من جديد بين انياب الجوع.. الجوع ! وراحت تشير بيدها الى أطفالها وهي تتلوى من الألم وتقول :

ـ آه من هذا الوجود المريع !

ثم زمجرت قائلة : ألا تستحي .. ألا تخجل ..؟ لم تكتف بما فعلت بل توجهت نحو راسكولنيكوف وصاحت به :

ـ لقد جئت من الحانة معه ؟ لقد سكرت معه ؟ كنتما تشربان معا .. أخرج من هنا ...

تهافت الشاب طالبا النجاة دون ان ينبس ببنت شفة وكان باب الغرفة الاخرى الذي كان مواربا قد فتح على مصراعيه وبان خلال الفتحة بعض الفضوليين الذين حلا لهم مشاهدة تلك التمثيلية المؤلمة ! وكانت الاعناق مشرئبة و « النظارة » متلهفون بين مدخن لفافة ومولع بغليون ! كانت اجسادهم ملفوفة في جلابيب نوم ممزقة بالية وكان بعضهم مرتديا البسة صيفية خفيفة اقرب الى التبذل وآخرون في ايديهم ورق اللعب ! وكان يزيد في تسليتهم قول مارميلادوف وهي تجذبه من شعره ان ذلك يفيده ولا يؤلمه ! ولقد تدافع اولئك المتطفلون حتى كادوا ان يبلغوا حجرة جيرانهم لولا ان اوقفتهم همهمة حانقة مغضبة ! تلك الهمهمة كانت تنبعث من صدر اميلي ليبيوشسل التي ظهرت على « المسرح » لتعبد الامور الى نصابها على طريقتها وهي تسقي المرأة المسكينة سيلا من الشتائم ملوحة لها للمرة المائة بوعيدها القضائي بتخلية الغرفة منذ الصباح !

استطاع راسكولنيكوف قبل خروجه ان يجمع في قبضته

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

الدريهمات القليلة التي تبقت لديه من « الروبل » الذي انفق بعضه في الحانة وان يضعها خلسة على حافة الكوة . فلما بلغ السلم ، ندم على ما فعل وود لو استعاد ما منح وراح يناجي نفسه قائلا :

« يا لها من حماقة تلك التي ارتكبتها في التو واللحظة ! ان لديهم « سونياهم » بينما انا في مسيس الحاجة الى المال . » . غير انه تذكر اقوال مارميلادوف حين قال : « ان سونيا بحاجة الى الادهان والى كل متطلبات النظافة » فأيقن انه لن يستعيد حتى ولو اتيح له ان يتسلل دون ان يعترضه احد ! لا لن يفعل ذلك .. ان وسائل النظافة غالية الثمن !

تابع سيره نحو غرفته وهو يغمغم : « ان سونيا لا تستطيع الكسب بسهولة ... ان ملاحقة الغني بقصد السيطرة عليه لا تخلو من متاعب واخطار ! نعم ... لولا دريهماتي لما كان باستطاعة افراد هذه الاسرة البائسة الا التطلع بلوعة وحرمان الى الطعام الذي لا يستطيعون نيله ! مسكينة سونيا... يا للمهنة التي دفعوها اليها بتأثير الحاجة ! نعم... لقد ذرفوا دمعا سخينا في بادىء الامر لكنهم سرعان ما اعتادوا تلك التضحية وألفوها . نعم ... ان الانسان نذل حتى انه يعود نفسه على تقبل كل شيء !

ثم تابع تفكيره وقال يخاطب نفسه :

« هيا يا فتى ... لقد كنت قاسيا في حكمي . اذ لو لم يكن الانسان في حقيقته نذلا او بالاحرى لو لم تكن النذالة من صفات الانسانية لكان معنى ذلك ان كل ما في الوجود ليس الا اباطيل... نعم اراجيف خيالية لا حد لها ... ولا شك انها كذلك ! »

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

٣

استيقظ راسكولينكوف متأخرا بعد ان حفل نومـــه بالاحلام المزعجة ، فلم يفده نومه الطويل في استعادة قواه . كان مزاجه حادا مستطيرا وبدت الغرفة لناظريه بشعة كريهة . بدت اشبه بقفص طولــه ست خطوات ذي مظهر عريق بالبشاعة بوريقاته الباهتـــة التي تزين جدرانه ، يسبح الغبار الكثيف في ارجائها ، منخفضة جداً حتى انـه كان على طويل القامة ان يتحاشى ارتطام رأسه بسقفها ، اما الاثـاث فكان يتناسب معها : ثلاثة مقاعد متداعية قديمة ومنضـدة مدهونة « مجازا » في احد اركانها وقد تراكمت فوقها الكتب والدفـاتر التي يشهد الغبار الذي يعلوها انها لم تمس منذ امد بعيد !.. وكان هناك « اريكة » كبيرة تشغل المساحة القائمة بين منتصف الغرفة والجـدار مجللة بقماش هندي ممزق كان راسكولينكوف يستعملها بدلا مـن السرير ! وكثيرا ما كان ينام عليها بألبسته كلها دون ان يبسط فوقهـا غطاء ما ويلتحف معطفه القديم ، معطف التلمذة ! وكان يستعيض عـن الوسادة ــ لافتقاره الى واحدة ــ بكيس صغير حشر فيه كل مــا وصلت اليه يده من ملابس داخلية قذرة أم نظيفة على قدر حاجته.. وكذلك كانت هناك منضدة صغيرة امام « السرير » !

كان من العسير على المرء الانحطاط الى مستوى هذا المصير!.. مع ذلك فان راسكولينكوف كان في حالة نفسية تجمله يرتضي تلـك الحقارة فكان منظر كوخه الزري يبعث في نفسه نوعا من السرور . كان قد الف العيش في عزلة تامة كالسلحفاة التي تلجـأ الى بيتهـا الطبيعي .. غير انه لم يكن راضيا عن الخادم ذات الوجه الذي يثـير في نفسه حقدا مريرا كلما اطلت ذات صباح لتراقب مـــا يجري في غرفته . تلك هي عادة بعض المخبولين الذين يشـورون بفعـــل بعض

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

الاشياء دون بعضها الأخر ! وكانت صاحبة الدار قد انقطعت عن تقديم الطعام اليه منذ اكثر من خمسة عشر يوما . فلم يفكر ـ رغم ذلك الصوم الاضطراري ـ في وجوب النزول اليها ومناقشتها الاسباب ! وكانت « ناستاسيا » وحدها ـ وهي الطاهية والخادم الوحيدة في المنزل ـ راضية عن ذلك المستأجر لانها كفت نهائيا عن ترتيب سريره وتنظيف غرفته اللهم الا اذا صدف ان مرت من هناك مرة في الاسبوع وبيدها مكنستها .. وكانت هي التي ايقظته هذا الصباح ـ لدهشته ـ وهي تهيب به ان ينهض :

ـ هيا انهض ! كيف تنام الى هذا الوقت وقد تجاوزت الساعة التاسعة ؟ لقد اتيتك بالشاي فهلا ارتشفته ؟ سوف تموت من الجوع اذا بقيت على حالك !

فتح المستأجر عينيه وارتعد ! فقد عرف صوت ناستاسيا ! ولكنه تمالك اعصابه وقال بصوت خافت :

ـ أهي صاحبة الدار التي ارسلت الي هذا الشاي ؟

وضعت امامه آنية الشاي الخاصة بها والتي كانت فيها بقايا الشاي الذي تحدثت عنه ثم القت بجانبها بقطعتين صغيرتين من السكر المصفر وقالت : ـ آه .. صاحبة الدار !... ليكن !

تناهض الشاب وراح يبحث في جيوبه ـ وكان نائما بألبسته كاملة ـ ثم اخرج قطعة نقود صغيرة وقال :

ـ هاك يا ناستاسيا أنني اذا اردت بقطعة صغيرة من الخبز ثم اذهبي الى اللحام واشتري لي بعضا من « النقانق » اجتهدي ان تكون رخيصة الثمن !

ـ سآتيك بالخبز حالا . اما « النقانق » فانني افضل عليها

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

حساء الملفوف الذي عندنا بعضه ، فلقد رفعت لك جانبا منـــه مساء امس ولكنك تأخرت في عودتك ! انه حساء لذيذ جدا ..

عادت اليه بعد قليل بالخبز والحساء فمضى يأكل بنهم بينمـــا جلست الى جانبه وراحت تثرثر . كانت من تلك النسوة القرويـات اللاتي يتمتعن بلسان لا يدركه الاعياء ! قالت تحدثه :

ـ تريد « براسكوفي بافلونا » ان تشكوك الى البوليس !

فأربد وجه راسكولينكوف واجاب مستفسرا :

ـ تشكوني الى البوليس ؟ ماذا يزعجها مني ؟

ـ انك لا تدفع لها ولا تريد اخلاء الغرفة وهذا ما يزعجها منك !

فهمهم بين اسنانه يقول

ـ يا للشيطان .. هذا ما ينقصني في هذه الآونة ! ان ذلك يأتي في غير موضعـه ! .

ثم تابع بصـوت مرتفع يقول :

ـ يا لها من حمقاء ! سوف اقابلها اليوم وسأتحـدث معهـا في الامـر !

ـ قد تكون حمقاء كما تقول مثلي تماما .. ولكن انت الـذي تنعم بالذكاء الالمعي لم تبقى هكذا منزويا دون ان تمد انفك الـى الخارج ؟ كنت من قبل ـ على حد قولك ـ تعطي دروسا للاطفال فلم لا تقوم الآن بأي عمل ؟

فأجابها بلهجة جافة دون ان يعي ما يقول

ـ انا اعمل شيئا ما ...

ـ مـاذا تعمل ؟

ـ عمـــلا ...

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

ـ اي عمـــل ؟

فأجابها برزانة بعد صمت قصير قائلا :

ـ انني افكـــر !

كان مزاج ناستاسيا مرحا حتى انها اذا ابتهجت لشيء مهما بلغت تفاهته ، راحت تضحك بسكون ضحكة مكبوتة تهز جسمها كلـــه وتجعلها تتلوى بعنف حتى ينتهي بها الحال غالبا الى قذف مـــا في احشائها ! تلك كانت احدى ميزاتها ولقد كانت فريسة لتلك الميزة في تلك اللحظة عند سماعها جواب الشاب !

ولما استطاعت النطق قالت :

ـ هلا فكرت على الاقل .. في كثير من المال ؟

ـ لا يمكن اعطاء دروس اذا لم يكن لدى المرء احذية وعلى كل حال انني لا ابالي !

ـ لا عليـك !..

واسترسل بلهجة شرسة وكأنه ينافس افكاره الشخصية وقال :

ـ دروس ؟ لا يجني الانسان منها الا النزر القليل ..

ـ لعلك تريد اكتساب ثروة كاملة دفعة واحدة ..

فأجابها بلهجة مطمئنة بعد تفكير قصير قائلا :

ـ نعـم ثروة كاملـة ..

ـ مهلا .. انك تخيفني لانك تتـوق الى الـوثوب الخطر .. وعلى فكرة ، لقد وردت اليك رسالة في غيابك كدت انساها ..

ـ ماذا ؟ رسالة الي ؟ وممن ؟

ـ ممن ؟ لست ادري ! لقد أعطيت الساعي من جيبي الخاص ثلاثة « كوبيكات » فهلا اعدتها الي ؟

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

فهتف بها راسكو لينكوف قائلا وقد هزته المفاجأة :

ـ بحق السماء اذهبي وجيئيني بها ! يا الهي !

لم تمضِ دقيقة حتى كانت الرسالة بين يديه ، كان يتوقع ان تكـــن من امه التي تقطن مقاطعة « ر ... » وصدق ما توقعه ! فلما اخذهـا بين يديه شحب لونه .. فقد انقطعت الرسائل منذ أمد بعيد ، وكانـت افكاره تزيد ايلامه .. وابتهل الى الخادم بضراعة ان تذهب وتتركـه لوحدتـــه :

ـ هاك « كوبيكاتك » الثلاثة يا ناستاسيا وانصرفي .. انصرفي بحق الرحمن .. بحق السماء عجلي بالانصراف !

كانت يده ترتعد والرسالة فيها ، ولم يكن يريد فضها بحضـــور الخادم . كان يشعر بحنين للبقاء « وحده » مع ذلك الكتاب ، فلمـــا ارتحلت ناستاسيا ، حمل الرسالة الى شفتيه وقبلها وراح يتمهل فـي معاينة العنوان الذي كانت تحمله ! .. لقد تعرف على كتابـــة امـه العزيزة ، ذلك الخط الدقيق المائل ، خط امه التي علمته مبـــادىء القراءة والكتابة .. واخيرا فض الغلاف فطالعته رسالة مطولة سطرت على ورقتين كبيرتين امتلأت صفحاتهما كلها بكتابة دقيقة متلاحقة .

عزيزي روديا : ها قد مضى شهران لم اتصل بك كتابة خلالهما ، ولقد تألمت لذلك وقاسيت من هذا الانقطاع حتى انني لم استطـــع النوم الليلة الماضية لكثرة ما فكرت فيك . اعتقد انك تلـــومني على سكوتي الطويل القسري ! وانت تعلم كم احبك .. فأنت كل ما تبقى لنا : لدونيا ولي ، انت كل شيء بالنسبة الينا ، كل املنا وايماننـــا بالمستقبل ... لا تسل عن حالي حينما علمت انك تركت الجامعة منذ شهور بسبب ضيق ذات يدك ، وان دروسك انقطعت وكذلك مواردك ! كيف استطيع يا ولدي ان اساعدك وانا لا امتلك الا مائة وعشرين

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

روبلا فى العام هي كل جرايتي .. ان الخمسة عشر روبلا التي بعثت بها اليك منذ اربعة اشهر ، كنت اقترضتها ـ كما تعلم ـ من احد الباعة عندنا : فاسيلي ايفانوفيتش فاخروشين . انه رجل باسل وقد كان صديقا لابيك . بيد انني عندما فوضته بقبض جرايتي استيفاء لدينه ، لم اتمكن من الوفاء قبل اليوم ، مما جعلني خلال هذه المدة عاجزة عن امدادك باي عون . اما الان والحمد لله ، فانني اعتقد ان بمقدوري ان امدك بعض الشيء ، وعلى العموم نستطيع اليوم ان نباهي باننا في حال يتحسن باطراد ، الامر الذي بادرت الى اطلاعك عليه .. فهل خمنت يا عزيزي روديا ما هو السبب ؟ ان اختك يا ولدي تقطن منذ شهر ونصف معي واننا نأمل ان لا نفترق بعد اليوم ابدا . حمدا لله فقد انتهت آلامها ولسوف اطلعك على دقائق الامر بالترتيب لكي تدرك كيف وقع ذلك ، الامر الذي اخفيناه عنك حتى اليوم .

عندما كتبت لي منذ شهرين انه ترامى الى سمعك ان اختك دونيا موضع معاملة سيئة من قبل مستخدميها آل سفيدريكايلوف وانك تسألنا ايضاحا عن ذلك بغية بحاجتك الى الاطمئنان ، ما كنت اعرف كيف اجيبك ... ولو انني اخبرتك بالحقيقة كلها لهجرت المدينة ولقطعت الطريق مشيا على قدميك لنصل الينا . ذلك لانني اعرف عواطفك وافهم عقليتك ، فما كنت لتترك لختك عرضة للامتهان والاعتداء عليها حتى انني شخصيا كنت يائسة ولكن لم يكن بوسعي عمل شيء ! زد على ذلك انني ما كنت اعرف الحقيقة كلها ... وكان أسوأ ما فى الامر ان اختك « دونيا » لما عملت عندهم كمربية منذ عامين ، استلفت مائة روبل بشرط ان تحسم على دفعات من اجورها الشهرية ، الامر الذي جعلها عاجزة عن التحرر من ربق مستخدميها قبل وفاء السلفة ... وهذا المبلغ (واستطيع الآن ان اصارحك يا

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

عزيزي روديا) كانت استلفته بصورة خاصة لترسل اليك منه الستين روبلا التي تلقينها منا فى العام الماضي ••• وقد خدعناك كلتانا حينما اوهمناك انه مال ادخرته اختك من قبل ••• والان اطلعك على الحقيقة كلها لان الله من علينا واراد ان تختلف اوضاعنا كلها وتتحسن ولانني اريدك ان تدرك الى أي حد تحبك اختك دونيا واي قلب عطوف نادر المثيل تحمل بين ضلوعها ••• والقضية هي ان السيد سفيدريكايلوف كان يعاملها فى البداية بخشونة وصلف ••• فكان يعرضها على مائدة الطعام لمختلف انواع الهزء والمشاكسة الممجوجة•• ولا اريد الاسترسال في شرح هذه التفاصيل المؤلمة كي لا اثيرك واحرك غضبك دون جدوى طالما ان هذه الامور قد انتهت الان ولن تعود •••

موجز القول ، كان مركز دونيا اليما لدى آل سفيدريكايلوف رغم ما كانت تلاقيه من حسن المعاملة من زوجته « مارتا بيتروفنا » ومن كل سكان المنزل الاخرين ، لكن ماذا نتج عن ذلك ؟ تصور ان ذلك المأفون كان منذ امد بعيد يضمر ميلا نحو دونيا وانه كان يخفي كل ذلك تحت ستار من الغلظة والفظاظة والاحتقار ! ولعله كان يخجل من نفسه او انه استنكر ما يبيت لها من آمال محرمة وهو الطاعن فى السن ، رب الاسرة الكبيرة ••• ومن اجل ذلك كان ينقم على دونيا ويحقد عليها •• ولعله كان يقصد من وراء تلك القسوة والسخرية التي كان يعرضها لهما ان يجعل الباقين يحذون حذوه في معاملتها • غير انه لم يستطع الصمود والمثابرة على خطته ••• وبلغ منه الهوس ان راح يفاتح دونيا بصراحة بما فى نفسه ويعرض عليها عروضا دنيئة ممنيا اياها بشتى المكافآت والعطاءات ومؤكدا لها استعداده لهجر اسرته والفرار معها الى حيث ينعم بحبه الاثم سواء أكان ذلك فى احدى ممتلكاته النائية ، او فى خارج البلاد ••• لك ان تتصور بعد هذه المقدمة فى أي ذعر وآية رهبة كانت تعيش اختك

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

المسكينة .. وما كان لها ان تفكر في ترك عملها ، ليس بسبب السلفة الواجبة التأدية فحسب ، ولكن لتجنيب مارتا بيتروفنا الالم الذي سيحدثه لها علمها بالامر ... وهي لو علمت به ، او شعرت بظل من الشك فى نفسها في هذا الصدد ، لاحدثت فى الاسرة مشاحنات لا تؤدي الا الى اسوأ النهايات والاحتمالات . اضف الى ذلك الفضيحة التي كان يمكن ان تلحق بدونيا ، رغم اننا لم نتمكن من اجتناب الفضيحة كليا ..

كانت دونيا لا تستطيع الفرار من ذلك البيت الممقوت ، قبل ستة اسابيع على الاقل ، وذلك بنتيجة ظروف شتى ... وانت تعرف اختك ، وتعرف كم هي حكيمة عاقلة متينة الخلق ! وهكذا عولت دونيا على الاحتمال ، مطمئنة الى شجاعتها التي لا تخونها فى مجابهة تلك الامور ، مهما كانت الظروف حرجة ، والملابسات دقيقة خطيرة ! وقررت الامتناع عن الكتابة الي حول هذا الموضوع ، كي لا تثير الرعب فى نفسي . لذلك فان رسائلها التي كانت ترد الي تباعا ، لم تكن تحمل أي تلميح حول هذا الموضوع ، فجاءت الخاتمة بشكل فجائي غير متوقع ! ذلك ان « مارتا بيتروفنا » ـ بصدفة عجيبة ـ داهمت زوجها في البستان ، وهو يبتهل الى دونيا ، ويتوسل اليها... ففهمت الموضوع على عكسه ، واتهمت دونيا بما كان ينبغي لها ان تتهم به زوجها . فقام بينهما فى ذلك البستان مشهد مريع ... كانت « مارتا بيتروفنا » ترفض الاستماع الى ايضاحات « دونيا » ، بل انها سمحت لنفسها ان تضربها وان تصيح فى وجهها طيلة ساعة من الزمن ، وامرت اخيرا ان تعاد الى المدينة ـ عندنا ـ على عربة قروية عادية، ألقيت فيها حاجاتها دون نظام ولا ترتيب...وتكدست في تلك العربة البستها « وبياضاتها » وكل ما حملته معها في ذهابها الى ذلك البيت ... وكانت السماء تمطر مطرا غزيرا ، واضطرت دونيا على

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

ما كانت عليه من تجريح وخزي ، ان تقطع سبعة عشر فرسخا برفقة الفلاح ، وفى عربة مكشوفة . فاحكم الان بنفسك على نوع الجواب الذي كان يمكنني ارساله اليك ، جوابا على كتابك الذي بعثت به الي منذ شهرين ؟ ... لقد كنت يائسة ، لا اكاد افقه شيئا مما يدور حولي، فلم اجرؤ على مكاشفتك بالحقيقة ، والا لتجرحت كرامتك ، ولاستثارك الغضب ، ولكنت اتعس المخلوقات .. خصوصا ما كنت لتستطيع الاتيان بأي امر ، الا زيادة موقفك سوءا وخطورة ! هذا مع العلم ان دونيا حذرتني من مفاتحتك بالموضوع ، فلم اجد في نفسي القدرة على تدبيج رسالة ، تحمل تفاصيل تافهة مغلوطة لا اعرف كيف اصوغها !

استمرت الافتراءات تروج هنا فى المدينة طيلة شهر كامل . وكنا هدفا مكشوفا لها ، وبلغت من شدتها اننا ـ دونيا وانا ـ ما عدنا نستطيع وطء ارض الكنيسة باقدامنا ، خشية السنة الناس الحداد ، ونظرات الاحتقار التي كنا نستهدف لها ، الهمسات التي كانت ترتفع فى استقبالنا ، وبلغ الحال حدا لم يعد بعضهم يخجل من ابداء آرائه امامنا وجاهيا دون خفر ولا حياء .. وادار معارفنا ظهورهم لنا ، وقلب لنا اصدقاؤنا ظهر المجن . حتى امتنع بعضهم عن توجيه التحية الينا ومخاطبتنا .. ثم بلغني من مصدر موثوق ان بعض المستخدمين والموظفين الصغار ، تآمروا بينهم ، وقرروا اهانتنا بشكل دنيء ، بأن يلطخوا باب مسكننا بالقطران ، حتى ان مالكي الدار راحوا يدعوننا الى اخلائها ... وكانت « مارتا بيتروفنا » وراء هذه التخرصات والافاعيل ، فقد راحت تنشر القصة كما فهمتها فى كل مكان تؤمه ، لتنال من دونيا وتحط من قيمتها .. وكانت معرفتها بالناس من مختلف الطبقات تسهل مهمتها ، خصوصا وانها ميالة بطبعها الى الثرثرة والتحدث عن شؤونها الداخلية ، الامر الذي كان يهددنا بانتشار تلك القصة ، ليس فى مدينتنا فحسب ، بل فى المقاطعة كلها ، وبلغ من حزني

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

ان وقعت فريسة المرض ، على عكس دونيا التي اظهرت جلدا عجيبا ..

ليتك رأيتها وشهدت كيف كانت تحتمل كل هذه الافتراءات المرذولة ، وتشجعني على الاحتمال وتعزيني بالمصاب لتخفف وطأه فى نفسي . انها ملك ! وقد رحمنا الله وغمرنا باحسانه اذ انتهت آلامنا.. ذلك ان السيد سفيدريكايلوف قرر الاعتراف بذنبه ، والاقلاع عن خطئه .. ولعله اشفق على دونيا مما حل بها بسببه ، فشرح « لمارتا بتروفنا » الامر بحذافيره ، وقدم اليها الادلة التي تنادي ببراءة دونيا الكلية وتدعمها .. واذكر منها بصورة خاصة ، رسالة كانت دونيا قد وجهتها اليه قبل ان تفاجئهما مارتا بيتروفنا فى الحديقة ، كانت تطلب اليه فيها ان يكف عن ملاحقته لها ، وتعتذر له فيها عن ملاقاته فى الموعد الذي رجاها ان توافيه فيه .. ــ وقد بقيت الرسالة بعد انسحاب دونيا بين يدي السيد سفيدريكايلوف ــ وتعتب عليه فيها سلوكه المشين حيال زوجته مارتا بيتروفنا . وتذكره بانه متزوج ورب عائلة ، وان تصرفه سوف يجلب التعاسة والشقاء للاسرة كلها . وتدعوه الى الكف عن مضايقة فتاة مسكينة عزلاء ، لا تملك عن نفسها دفاعا ... كل ذلك بلهجة عنيفة شديدة حاسمة .

خلاصة القول يا عزيزي روديا ، كانت تلك الرسالة مؤثرة ونبيلة ، حتى انني لم املك نفسي عن الانتحاب عندما قرأتها . ولا استطيع اليوم ان اعيد تلاوتها دون ان تملأ الدموع عيني .. وجاءت شهادة الخدم مصداقا لصحة ما جاء فى رسالة دونيا ، مؤيدة لها . اولئك الخدم الذين ظهر انهم كانوا يعرفون اكثر مما قدر السيد سفيدريكايلوف نفسه ، كما يحدث دائما فى مثل هذه الحالات .. وقد ذهلت « مارتا بيتروفنا » للنبأ ، فكان صدمة اليمة لها ، زادت شدتها عن الصدمة الاولى ــ كما اعترفت بنفسها بعدئذ ــ .. ولم يبق لديها اي شك فى

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

براءة دونيا .. وهكذا لم تكد شمس الصباح تشرق ـ وكان اليوم احدا ـ حتى هرعت الى الكنيسة تبتهل الى العذراء شديدة القدسية ان تساعدها على احتمال هذه التجربة العنيفة ، والقيام بالواجب المترتب عليها . ثم جاءت تزورنا بعد ذلك مباشرة ، دون ان تتوقف في الطريق ، فقصت علينا الخبر بحذافيره ، وبكت بمرارة واندفعت ـ تحت تأثير ندمها وشعورها بالاثم ـ الى دونيا تعانقها ، وتطلب اليها الصفح عنها . ثم غادرتنا وطافت فى انحاء المدينة كلها ، فلم تترك احدا من معارفها الا وازجت دونيا امامه مديحا حارا ، وسكبت سيلا من الدمع وهي تشيد بنقاء عواطفها ، ونبل اخلاقها .. ولم تكتف بذلك بل راحت ـ زيادة في تبرير موقف دونيا وسعيا وراء رد اعتبارها السليب اليها ـ راحت تتلو رسالتها بصوت عال امام الناس ، تلك الرسالة التي حدثتك عنها ، والتي وجهتها دونيا الى السيد سفيدريكايلوف .. بل وسمحت لمن اراد ان ينسخ عنها صورة ليحتفظ بها ، ويطلع عليها من يشاء (وهو تصرف لا اعتقد انه فى محله) .. وبهذه الطريقة لبثت « مارتا » عدة ايام تطوف المدينة ، ساعية لاصلاح ما افسدت . فلم تترك احدا من معارفها الا وحدثته بالنبأ الجديد ، حتى ان بعض هؤلاء راح يبذها فى نشر الخبر والتعقيب عليه !.. وكانت زيارة مارتا بيتروفنا متوقعة لكل مكان ، فكان يعرف سلفا انها ستقرأ الرسالة في يوم كذا ، حتى ان الذين سبق لهم سماع ما جاء فيها ، كانوا يقصدون حيث تكون ، ليستمعوا من جديد الى تلك التلاوة العتيدة !

انني اعتقدت ان مارتا بيتروفنا بالغت كثيرا فى امثال هذه التصرفات ولكنها كانت ترضي ضميرها وتحتكم لعقليتها ، وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التصرف ان عاد الى دونيا اعتبارها ، وتحررت نهائيا من الوصمة التي كانت تهدد حياتنا .. وقد تلقت دونيا عروضا كثيرة للتدريس في عدة دور ، الا انها رفضت تلك العروض ، واستعدنا مرة

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

ثانية مكانتنا بين الناس الذين راحوا يعربون لدونيا عن مودتهم واسفهم .. وكان لهذا الحدث اثر فى تسهيل التحسن الذي طرأ على موقفنا ، اذ تقدم خطيب يطلب يد دونيا فوافقت عليه ، وانا بدوري بادرت الى اخبارك .. اذ رغم ان القضية قد بت فيها دون اخذ موافقتك فاننا ـ دونيا وانا ـ ندرك تماما انك لن تسرها فى نفسك ، خصوصا متى عرفت اننا ما كنا لنستطيع ارجاء البت فيها ، وانك ما كنت لتستطيع الحكم على الموضوع بدقة ، وانت حيث انت الآن .. واليك تفصيل القضية كما وقعت :

«بيير بيتروفيتش لوجين» المستشار القضائي، يمت بقرابه بعيدة الى مارتا بيتروفنا ، التي لعبت دورا فائقا فى هذه المناسبة . فهو الذي بدأ يعرب لقريبته عن رغبته فى التعرف الينا ، وقد استقبلناه بالطبع على احسن ما يكون الاستقبال ، وقدمنا له القهوة .. وفى اليوم التالي بالذات بعث الينا رسالة عرض فيها بأسلوب مهذب رغبته ، والتمس جوابا سريعا وحاسما .. وبيير هذا ، رجل اعمال جم المشاغل تعتبر الثواني ثمينة فى حياته .. ولسوف ينتقل الى بيترسبورج ! فلما اطلعنا على رغبته ، فوجئنا بها ، كما لا شك تتصور ذلك . لانه كان عرضا فجائيا غير منتظر .. فأمضينا كلتانا سحابة يومنا نمحص المسألة ، ونناقشها على كل الوجوه . صحيح ان سن بيير هذا يبلغ الخامسة والاربعين ، الا ان مظهره مرض جدا ، فيه جاذبية للنساء ، وهو الى جانب ذلك ذو مركز ممتاز ، وحال مرموق رغم ما يبدو على محياه من كسوف وترفع . ولكن ذلك قد لا يعدو المظهر ، مجرد مفعول النظرة الاولى ليس الا ، ولسوف تلقاه في بيتروسبورج ، ولن يتأخر ذلك ، فآمل ان لا تحكم عليه باندفاع ودون روية ، كعادتك يا عزيزي ، اذا لمست في مظهره مما يستوقف الانتباه للوهلة الاولى ! اقول

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

لك لمجرد القول ، رغم وثوقي من انه سينتزع اعجابك ولانه ، لكـــي نحكم على رجل من اي نوع كان وتتوصل الى معرفة سريرته ، ينبغي ان تتصرف حياله بحكمة واحتراس بالغين . اذا اردنا ان لا نقـــع في شطط يصعب تصحيحه بعدئذ وازالة آثاره . اما فيما يتعلق ببيـــير بيتروفيتش ، فلدينا اكثر من دلالة على انه من خيرة الرجال ، واوفرهم احتراما !.. وقد صرح لنا في زيارته الاولى انه رجل ايجابي حقـــا ، ولكنه ازاء عديد من النقاط ، يؤمن «بمبادىء الاجيال الحديثة» حسب تعبيره الخاص . وانه عدو التسرع فى الحكم على الاشياء .. ولقـــد حدثنا في زيارته تلك بأشياء كثيرة ، لانه ــ كما يبدو ــ معجب بنفسه بعض الشيء . يحب ان ينصت الناس الى حديثه ، مما لا يجدر اعتباره عيبا الا اذا شئنا ان نفرط في الحكم !... انني لم افهم شيئا كثيرا من كل ما قال،غير ان دونيا شرحت لي انه على الرغم من ان ثقافته الاساسية لم تكن عالية ، الا انه ذكي تبدو عليه الطيبة والنبل ... انك تعـرف عقلية اختك يا روديا . انها شابه ذات تفكير منطقي قويم ، مثابـــرة شريفة النفس رغم قلبها الحساس المتأجج كما لاحظت عليها ذلـك . طبيعي ان ، لا دونيا ولا بيير ، ارتبط احدهما بالاخر بغرام مـــبق . لكن دونيا ــ الى جانب كونها فتاة ذكية ــ شابة نبيلة كملك السماء ، تعتبر ان من واجبها بناء سعادة زوجها الذي عليه بدوره ان يفكر بمثل ذلك ، الامر الذي لا نجد لدينا اي دافع للشك فيه رغم السرعة التـــي رافقت البت فى هذه القضية ! انه على العموم من الرجال الاذكيـــاء النابهين ، فهو يدرك اذن ان سعادته العائلية ستكون اكثر توطيدا كلما كانت دونيا محفوفة بالسعادة والهناء . اما فيما يتعلق ببعض التباين في الامزجة وتوافه الميل ، والذي يرجع في الغالب الى تباين فى الآراء ــ وهو الامر الذي لا يمكن اجتنابه حتى في اكثر الاسر تفاهمـــا وسعادة ــ فان دونيا تكفلت في علاجه على طريقتها . انها تؤكد لي ، بأن

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

ليس في الامر ما يتعلق ويشغل البال ، وانها ستتغاضى عن كثير من الامور شريطة ان تعم العدالة ، ويسود علاقاتهما التجرد والنزاهة .

ان المظاهر كثيرا ما تخدع يا ولدي ! فقد بدا لي هذا الرجل لاول وهلة غضوبا بشيء من الوقاحة ، غير انني تأكدت من ان هذا الشعور يرجع الى صراحته الشديدة .. وقد صرح في زيارته الثانية لنا ، عقب ابلاغه موافقتنا ، انه قبل ان يصادف دونيا ويتعرف اليها كان مقررا ان لا يتخذ لنفسه زوجة الا فتاة شريفة دون بائنة ، تذوقت معنى الحرمان والفاقة .. وفسر لنا وجهة نظره هذه قائلا : ان الرجل لا يجب ان يكون مدينا بشيء لزوجته ، ومن الخير ان تنظر المرأة الى زوجها نظرتها الى محسن كريم . هذا مع العلم انه عبر عن رأيه ذاك بشكل الطف مما كتبته لك ، غير انني نسيت عباراته التي تفوه بها ، واكتفيت بأن نقلت اليك المعنى ! كما انه لم يقل ذلك القول متعمدا مترويا ، بل ان تلك العبارة افلتت من فمه خلال حمى النقاش والحديث ، حتى انه بعدما ان قال ما قال عاد يصلح ما تفوه به ، ويزيل ما قد يكون علق في نفوسنا من آثاره ! ولبثت اعتبر ذلك القول لونا من الاهانة ، وفاتحت دونيا بعد ذلك بما خمنت ، فأجابتني بشيء من التبرم « ان الكلام شيء والافعال شيء آخر » وهو قول على العموم لا يخرج عن الحقيقة !

امضت دونيا ليلتها الاولى ساهرة .. تلك الليلة التي سبقت قرار القبول .. كانت تظنني نائمة . لذلك فقد نهضت من فراشها ، وراحت تذرع غرفتها جيئة وذهابا ، ثم جثت على الارض وراحت تصلي بحرارة وقتا طويلا ، امام « الايقونة » وفي الصباح ، انهت الي قرارها بالموافقة على الزواج !

قلت لك في متن هذه الرسالة ان بيير بيتروفيتش سيسافر الى

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

بيترسبورج ، وان اعمالا هامة تقتضيه ذلك السفر ، وانه سيفتتح فيها مكتبا للمحاماة فهو يزاول هذه المهنة منذ زمن بعيد ، وقد ربح مؤخرا قضية هامة . على ذلك ، تستطيع اعتباره يا عزيزي روديا ، ذا منفعة بالنسبة اليك ، وقد اتفق رأينا ـ دونيا وانا ـ على انك تستطيع منذ اليوم ان تبني مستقبلك الذي اصبح مؤمنا نهائيا .. آه .. ليت ذلك يتحقق بالفعل .. انه سيكون فعلا نجاحا منقطع النظير ، او قل رضوانا من الله لا اكثر ولا اقل .. حتى ان دونيا لا تنفك تفكر في ذلك !...

ولقد المحنا الى بيير بيتروفيتش بذلك ، فكان جوابه متحفظا ولكنه صرح بأنه يفضل بالطبع ان يدفع اتعابا لواحد من افراد الاسرة طالما انه لن يستطيع الاستغناء عن امين سر له « سكرتير » ، شريطة ان يبرهن ذلك القريب على كفاءته ، فيشغل مركزه بجدارة (ولست عاجزا عن ذلك ابدا !) عبر عن شكوكه في ان تكون دراساته في الجامعة لا تسمح لك بمزاولة العمل في مكتبه، وتوقفت المسألة عند هذا الحد.

غير ان دونيا التي لا يشغلها امر اكثر من هذا ، ستعود الى البحث فيه من جديد... لقد وضعت منذ ايام مشروعا مستعجلا يتعلق بمستقبلك: هي تجزم بانك تستطيع ان تصبح بعد قليل مساعدا لبيير بيتروفيتش، بل شريكا له في اعماله القانونية ، خصوصا وانك طالب في كلية الحقوق! انني شخصيا من هذا الرأي ، لذا تراني اسبح في هذه الامال ، واتيه في خضم هذه المرئيات معتبرة كل ذلك حقيقة واقعة ! وعلى الرغم من تحفظ بيير بيتروفيتش الحالي ، وهو تحفظ واضح السبب لانه لم يتعرف اليك بعد ، فان دونيا متأكدة تماما من انها ستبلغ الهدف بفضل نفوذها الذي تفكر في استعماله على زوجها المقبل .. نعم انها واثقة من ذلك !

اننا ولا شك نمتنع عن التحدث عن آمالنا امام بيتروفيتش ،

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

خصوصا عن رغبتنا في ان نراك يوما شريكا له ، لان بيير هذا رجل واقعي ولعله اذا شهد وعرف ما نضمر عزا ذلك الى اغراقنا في الخيال والاوهام . هذا عدا عن اننا ـ دونيا وانا ـ لم نحدثه قط عن املنا في ان يقدم الينا المال اللازم ، طيلة وجودك في الجامعة لمتابعة دروسك، ونحن واثقتان من اننا في غير حاجة الى التحدث عن هذا الأمر ، الذي سيكون بديهيا في المستقبل ، والذي لا شك سيبدأ من جانبه ، بعد ان يهمك بعض المواعظ ، لانه لن يستطيع رفض هذا الرجاء الذي تتقدم به دونيا اليه كزوج ! عدا عن انك ستكون مساعده الايمن في اعماله، وبذلك تخرج القضية عن نطاق الاحسان والمساعدة وتكون مجرد دفع اجر انت تستحقه لقاء عملك . تلك هي مشاريع دونيا التي تضمرها لك، وانا متضامنة معها في ذلك مؤيدة لها !

كذلك لم تتحدث في هذا الامر لانني كنت اهدف الى جعلك معه على قدم المساواة ، بعد ان تتقابلا للمرة الاولى ! ذلك ان دونيا كانت تتحدث اليه عنك بلهجة كلها حماس وتأييد ، فاذا به يجيبها لكي يحكم على رجل ما ينبغي ان يراه عن قرب ، وان يحتك به . لذلك فهو يحتفظ برأيه فيما يتعلق بك الى اليوم الذي سيتعرف عليك فيه .

سأطلعك كذلك على امر يا عزيزي روديا . انه ليس رأي بيير بيتروفيتش بالطبع ولكنه ـ ولنقل ـ هذيان امرأة عجوز ! ذلك انني بسبب اعتبارات معينة ، افكر في البقاء حيث انا ، بعد زواج اختك دونيا ، بدلا من ان اشاطرهما السكن . انني واثقة من انه سيكون له من نفسه ما يحفزه على مطالبتي بعدم الافتراق عن ابنتي ، وسأرفض بالطبع طلبه ... وهو وان كان لم يحدثني بعد بشيء ، ولكنه واضح انه سيكون كذلك ! وقد لاحظت اكثر من مرة في هذه الحياة ، ان الاصهار لا يضمرون خيرا لحموا تهم ، لذلك فانني الى جانب رغبتي

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

في عدم ازعاجهما في عشهما ، افكر جديا بالاحتفاظ بحريتي المطلقة واستقلالي التام !... ولن اعدم قطعة من الخبز أتبلغ بهـا ، وانا ام لولدين مثل دونيا ومثلك !- ولسوف اقطن بالقرب منكما كليكما .

واخيرا سأصل بك يا روديا الى النهاية الطيبة التي احتفظت لك بها في هده الرسالة : ألا فاعلم يا عزيزي روديا اننا سوف نجتمع ثلاثتنا قريبا ، ولسوف تتعانق بحرارة بعد فراق دام ثلاثة اعوام . ذلك انه تقرر ـ مسبقا ـ أن نذهب ـ دونيا وانا ـ الى بيترسبورج ..اما متى سيكون ذلك ؟ فلست ادري ! انما ارجح ان يكون ذلك خلال ثمانية ايام . وهو متوقف على الاستعدادات التي سيتخذها بيير بيتروفيتش والزمن الذي ستتطلبه . غير انه سيخبرنا في حينه لنوافيه الى بيترسبورج ، لانه يتعجل زواجه ويهدف الى الانتهاء منه خلال الشهر او على ابعد حد ، في وقت جد قريب : اي بعد عيد « انتقال العذراء » !

آه ... بأية سعادة سوف اضمك الى صدري ! ودونيا ... انها تحترق شوقا الى رؤيتك ... لقد قالت ذات مرة مازحة : انها لم تتزوج بيير بيتروفيتش الا لكي تنتقل الى بيترسبورج وتراك ! انها ملك كريم ! لقد اخبرتني بأنها لن تضيف شيئا الى رسالتي اليك هذه المرة ، رجتني ان اعلمك بأن لديها اشياء كثيرة سوف ترويها لك بنفسها ، اشياء تبلغ من الكثرة حدا يجعلها عاجزة عن الامساك بالقلم وتسطيرها بالترتيب والتسلسل . لانها تعرف ان الاسطر القليلة ـ مهما بلغ عددها ـ ، لن تستطيع ايضاح ما يعتلج في نفسها . لان الاسطر توقظ الحنين في النفس لا اكثر ... لسوف نلتقي قريبا يا ولدي غير انني عازمة على ان ارسل اليك في الايام القريبة ، كل ما استطيع ارساله من مال . اذ ان اعتباري المالي قد ارتفع في كل مكان

CVISION TECHNOLOGIES
PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

منذ ان عرف الناس ، ان دونيا ستتزوج من بيير بيتروفيتش • انا اعرف ان « اتاناس ايفانوفيتش » سيوافق على تسليفي خمسة وسبعين روبلا على جرايتي السنوية ، مما سيجعلني قادرة على ان ارسل اليك منها خمسة وعشرين او ثلاثين روبلا • ولولا خوفي من نفقات الطريق وما قد يطرأ علينا، لارسلت اليك اكثر من هذا المبلغ • انني احتاط لهذا رغم ان بيير بيتروفيتش عرض علينا ان يتحمل جزءا من النفقات الناجمة عن هذه الرحلة ، فيطلب الى واحد من معارفه ان يقوم بنقل متاعنا ، غير اننا يجب ان ندفع قيمة تذاكر سفرنا حتى بيترسبورج• وليس من المعقول ان نحل في المدينة دون ان يكون معنا مال يكفينا في ايامنا الاولى على الاقل • هذا مع العلم ان دونيا وأنا ، دققنا في كل صغيرة وكبيرة ، واتخذنا لها الحيطة • وبذلك فلن يكلفنا غاليا • اذ لا يفصلنا عن محطة السكة الحديدية اكثر من تسعين فرسخا ، وقد اتفقنا مع احد الفلاحين على ايصالنا اليها ، سنسافر في الدرجة الثالثة بكل اطمئنان ورضى ، وبذلك سأنجح في ارسال ثلاثين روبلا اليك وليس خمسة وعشرين •

اعتقد ان ما كتبته حتى الان يكفي، فقد ملأت ورقتين كبيرتين لم اترك فيهما مكانا خاليا • لقد انهيت لك قصتنا كما وقعت ، والله يعرف كم وقع لنا من حوادث !

والان يا عزيزي روديا، اقبلك على البعد بانتظار تلاقينا المقبل، واحمل اليك قبلات دونيا التي كلفتني بها ، وليرضى عنك الله ولتحل عليك بركتي كأم •

احبب اختك دونيا يا روديا ، احببها بقدر ما تحبك • واعلم انها تحبك حبا عميقا لا حدود له ، تحبك اكثر مما تحب نفسها ! انها ملك كما قلت لك • وأنت يا عزيزي روديا ، انت كل شيء بالنسبة الينا ، انت

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

املنا وعزاؤنا في المستقبل • ارجو الله ان تكون سعيـــدا فنكـون كذلك سعداء •••

هل تصلي دائما كما كنت تفعل يا روديا العزيز ؟ وهل تؤمن ابـدا بالقدرة والعناية الالهية المقدسة ؟ انني اخاف ان تكون الزندقـة التي بدأت تسري بشدة اليوم ، قد وجدت طريقها الى نفسك ، اذا كان ذلك قد حدث ، فسأصلي من اجل هدايتك يا ولدي • واذكـر يا ولـــدي الحبيب كيف كنت تتمتم صلواتك لما ان كنت طفلا وكان ابوك جيـا • كنت تجلس على ركبتي ، وكنا جميعا سعداء • فالى اللقاء يا ولـدي ، اضمك بعنف بين ذراعي وأرسل اليك قبلاتي •

محبتك حتى القبر
بولشيري راسكولنيكوف

كانت العبرات تغسل وجنات راسكو لنيكوف منذ ان قرأ الكلمات الاولى • غير انه ما ان فرغ من قراءة الرسالة كلها ، حتى شحب وجهه واكتسحت جسده رعشة هزت كيانه ، بينما انفرجت شفتاه عن ابتسامة باهتة كلها مرارة ! ترك رأسه يسقط على الوسادة القـذرة المحشوة بالالبسة ، وراح يفكر • كان وجيب قلبه يصم آذانه ، وكانت افكاره توقد نيران الحمى في جسده • شعر انه سيختنق في هـذه الغرفـــة الصفراء التي تشبه الخزانة او الصندوق ، بينما تاهت نظراتـــه في الفضاء ••• ولم يلبث ان اختطف قبعته وخرج دون ان يتهيب هذه المرة من لقاء صاحبة الدار على السلم ! نعم لقد نسي هذه الحيطة تماما ••• سار في اتجاه (ايل سان بازيل) جزيرة القديس باسيل ، مارا بالشارع (ف •••) كما لو كانت هناك اعمال هامة مستعجلـــة تنتظره • راح كعادته يناجي نفسه ويتحدث اليها بصوت مرتفع احيانا ، دون ان يلاحظ ما حوله ، او يبالي بمن يصطدم بهم ، شأن السكير المدمن •

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

٤

كانت رسالة امه تعذبه ... فقد ادرك منذ البداية الاساس او الجوهر الذي قامت عليه خطة أمه واخته ، فوصل الى قرار حاسم . قرار نهائي لا رجعة فيه : « لن يحدث هذا الزواج وانا على قيد الحياة ... اما السيد لوجين فالى جهنم ! »

نعم كانت التضحية واضحة تقذي العيون ... فراح يتمتم بين اسنانه وعلى وجهه ابتسامة من نجح في مسعاه .

ـ لا يا امي ، لا يا دونيا ، لن تخدعاني ... يا للعذر الذي تتذرعان به عن عدم استشارتي في الامر ، والذي دفعكما الى البت فيه بدوني . آه ... لم يكن ينقصني الا هذا .. انهما تظنان ان لا امل بعد ذلك في فسخ الخطوبة ... سنرى هل هناك امكان ام لا ... كم هو عجيب ذلك القول : « انه رجل عملي جدا هذا الـ : بيير بيتروفيتش ، جم المشاغل حتى انه لا يستطيع الا ان يتزوج بسرعة البرق ! » .. كلا يا دونيا ... انا ارى بوضوح واعرف « كل » ما تزمعين قوله لي . انا اعرف ما كنت تفكرين فيه تلك الليلة عندنا كنت تذرعين غرفتك بقلق .. انا اعرف ماذا طلبت الى الله في صلواتك لعذراء كازان التي تزين صورتها غرفة امي الصغيرة ! ان الصعود الى غولغوتا (١) صعب شائك هه .. هكذا اذن قررت نهائيا ... هل يعجبك يا اختي آفدونيا رومانوفنا ان تتزوجي رجل اعمال ايجابي يملك ثروة (ولنقل انه يملك ثروة ، لان ذلك اكثر ايجابية واشد تأثيرا) ، ويشغل عملين ويشاطر الاجيال الحديثة مبادئها (كما كتبت امي) ، حسن المظهر كما لاحظت ذلك بنفسك ! ان هذا « المظهر » هو الباقة !

---

(١) غولغوتا : Golgotha جبل بالقرب من اورشليم صلب عليه المسيح ـ المترجم ـ

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

ودونيا ، انها ستتزوج بهذا المظهر ... رائع ... رائع !

لم الحت امي في رسالتها الى « الاجيال الجديدة » ؟ انه امر يثير الفضول . هل أرادت وصف عقلية الشخص، او ان لها اهدافا ابعد من ذلك ؟ كأن تسترضيني مثلا لحساب السيد لوجين ؟ آه يا للماكرات ... يجب معرفة المدى الذي بلغت اليه الصراحة التي تبادلتاها تلك الليلة وذلك النهار والايام التي تلته .. انه امر جدير بالاهتمام ! هل نطقتا « بالكلمات » التي كتبتها لي كلها ، ام ان كلا منهما خمنت ما في ذهن الاخرى . لا شك ان ذلك هو نصيب الجزء الاوفى من هذه القصة . ان ذلك واضح في الرسالة

بدا الرجل « باردا » بعض الشيء حيال امي ، فراحت الساذجة المسكينة تطلع دونيا على ملاحظاتها ، فانزعجت هذه وخاطبتها في « شيء من التذمر » ... لا شك انها ستتذمر ! من ذا الذي لا يتذمر اذا كان الامر منتهيا وفي غير حاجة الى سؤال او جواب ؟ عندما يكون القرار النهائي متخذا دونما حاجة الى نقاش ؟.. ولم كتبت لي كذلك : « احبب دونيا يا رودي لانها تحبك اكثر من نفسها » . او ليس ذلك بسبب تبكيت الضمير الذي كان يعتلج في اعماقها ، بسبب تضحية ابنتها في سبيل ابنها ؟ ... « انت املنا وذخرنا للمستقبل ، انت كل شيء بالنسبة الينا ... » ! آه يا أمي !

احس بغضب عنيف يملأ صدره ، حتى انه ود لو قابل السيد لوجين، اذن لقتله ! واضاف يحدث نفسه وهو يتابع زوبعة افكاره :

ـ هه ... بالطبع ، يجب التصرف ببطء وحذر لمعرفة اي شخص وسبر غوره ، غير ان السيد لوجين كالضياء نفسه ، في غير حاجة الى درس وسبر ! فهو قبل كل شيء « رجل اعمال ومظهره حسن » ... تصور انه تحمل اعباء نقل « عفشهما » على نفقته ! .. فكيف لا يكون

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

طيبا بعد كل هذا ؟ اما هما ــ خطيبته وامها ــ فستستخدمان قرويا وستقطعان الطريق الى المحطة في عربة مغطاة بقماش خلق ، وانا ادرى بالمشقة في مثل هذه الرحلات . لكن ماذا يهم ؟ ليست المسافة الا تسعين فرسخا فقط ! !

ثم « سوف ننتقل بهدوء في عربة من عربات الدرجة الثالثة » مسافة الف فرسخ ! لا شك ان الواجب يقضي على الانسان ان يتصرف بحسب امكانياته . ولكن ما قولك يا سيد لوجين ؟ ان الموضوع يتعلق بخطيبتك! ثم انه لا يمكنك ان تجهل حاجة امها واضطرارها الى الاستلاف على جرايتها لتقوم بتلك الرحلة ! لا شك انك فهمت ذلك بعقليتك التجارية ، وخمنت ان في هذه العملية شخصين لا يمكن الا ان يتساويا من حيث الشروط والواجبات . واذن فعلى احدهما ان يقدم الخبز وعلى الاخر ان يقدم الملح اما التبغ (على حد قول المثل) فهو علاوة « على البيعة » ! وهكذا ايها الرجل العملي ، لقد تصرفت بما يضمن مصالحك لان نفقات شحن « العفش » ستكون اقل تكليفا من اجرة الانتقال ولعلك تنقل « العفش » مجانا ... فهل غفلتا عن هذا ام تعمدتا اغفاله ؟ والعجيب انهما سعيدتان ... كيف يغفل المرء عن الادراك ان هذه الباكورات ليست الا ازهارا ، وان الثمار ستأتي بعدها ... نعم كيف ؟.. صحيح ان البخل ليس هو كل ما يثير الحفيظة في هذا الموضوع ، حتى يأتي معه القبيح ويعقبه التصرف ! ان مثل هذا التصرف ينبىء بكامل البرنامج عندما يتم الزواج . فلم اذن تنحدر امي الى مثل هذا الجنون ! كيف ستصل الى بيترسبورج ، بثلاثة روبلات في جيبها او كما تقول هذه المرأة العجوز « ورقتين صغيرتين » . هه ... على اي شيء تعتمد في عيشها في بيترسبورج ؟ لقد تأكدت ــ من بعض الدلالات ــ ان بقاءها مع ابنتها في بيت واحد بعد الزواج مستحيل ،

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

حتى ولو كان في الايام الاولى ! لا شك ان ذلك الرجل النبيل كان قد اغفل عامدا بضع كلمات ، حتى يفهم قصده . مع ذلك فان امي تريد ان تستغفلني ، وتجعلني اعتقد انها هي التي سترفض ! ماذا تنتظر ؟ وعلى اي شيء تعتمد ؟ على مائة وعشرين روبلا جرايتها السنوية التي يجب انقاصها بما يسدد القرض لصاحبه : آتاناس ايفانوفيتش ؟ انها تقضي الشتاء كله وهي تحيك الدثارات الصوفية والقفازات ، وتتعب بذلك عينيها ! ولكن ذلك لا يأتيها باكثر من عشرين روبلا في العام ، تضاف الى المائة والعشرين التي هي من حقها ... فهي اذن تعتمد على كرم السيد لوجين ! ..

« سوف يعرض علي بنفسه ، سوف يرجوني قبول ما يعرض » . لها ان تتبجح ! ذلك شأن اصحاب النفوس النبيلة الطاهرة . انه ليروق لهم ان يفرقوا حتى اللحظة الاخيرة ريش الطيوز القذرة عن ريش الطواويس كما يقول المثل ، انهم لا يرون الا الخير ولا شيء الا الخير ، ومهما بلغ من احتمالهم للشر وتعرضهم له ، فانهم لا ينطقون الكلمة التي يجب ان تقال في هذا الصدد ... ان مجرد التفكير في الشر يقلق مثل تلك النفوس السادجة ، نعم ، انهم يحجبون اعينهم بأيديهم امام الحقائق حتى تصفعهم الصورة الحقيقية وتصطدم بانوفهم ..

كم اود ان اعرف اذا كان هذا السيد لوجين يحمل أوسمة أم لا ! انني أراهن أنه يدلي من عروته شريط القديسة آن ، وانه يضيف اليه الصليب عندما يدعى الى وليمة يقيمها بعض الرجالات الرسميين او التجار .. فليس هناك من خطر ان ينسى ذلك فى حفلة زفافه ! ولكن ليذهب الى الجحيم ...

يا الهي ! ان امي خلقت هكذا ، لكن دونيا ؟ عزيزتي دونيا ... أنا اعرفك جيدا . لقد كنت فى العشرين من عمري لما فارقتك آخر مرة !

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

كنت اعرف عقليتك . فقد كان لدي من الوقت ما يكفي لهذه المعرفة .. ها أن أمنا الصغيرة تكتب لي وتقول : ان دونيا « صبورة جدا » .. أنا أعرف عنك ذلك . أعرفه منذ عامين ونصف ومنذ عامين ونصف لم أكف مرة عن التفكير في هذا الصبر ، وبصورة أدق ، في هذه الطاقة الكبيرة التي تمتلكينها ، الطاقة على الاحتمال والصبر! كيف لا وقد صبرت على مثل سفيدريكايلوف وكل الملابسات التي لازمته ... انها طاقة جبارة هائلة ! واليوم تعتقدين أنت وأمي ان لا عليك اذا صابرت واحتملت « لوجين » الذي يبدي اغتباطه لمصاهرة نساء فقيرات ويدلي برأيه حول هذا الموضوع فى المقابلة الاولى !.. حسنا .. لنفترض ان « ذلك قد أفلت منه » رغم أنه ذلك الانسان الرزين المفكر الذي لا يمكن أن يغفل عن مثل هذه الاقوال فيدعها تسبق ارادته وتعاند رغبته في كتمانها! ولكن كيف فات دونيا هذا ؟ كيف تستطيع ان تعيش مع زوج هذا رأيه ؟ أجدى لها أن تأكل خبزا يابسا وتتجرع قطرات من الماء ، من أن تتورط وتبيع روحها ! كيف تستغني عن حريتها من أجل قضية لها علاقة بالترف . نعم لن تفعل ذلك ولو كان فى سبيل كل الـ : «سشليسويغ (١) ــ هولستن» فكيف من اجل هذا اللوجين ! كلا .. ان دونيا التي عرفتها ليست هذه التي أراها اليوم ... ولا يمكن ان تكون قد تغيرت عما كانت عليه... فماذا اقول ؟

لا شك أن البقاء لدى آل سفيدريكايلوف محزن أليم ، كما أنه مؤلم كذلك ان يتجول المرء من مقاطعة الى اخرى كل حياته لقاء مائتي روبل في العام ليعمل في تربية الاطفال وإدارة البيوت . لكنني اعرف ان اختي تفضل ان تعامل معاملة الزنجي بالنسبة الى صاحب مزارع المطاط او معاملة « ليتواني » بالنسبة الى الالمانيين ، على أن تفسد روحها

(١) كلمتان : الاولى لمقاطعة دانيمركية والثانية لمقاطعة بروسية ضمتا معا وادخلتا في عداد الاراضي البروسية تحت هذا الاسم. ــ المترجم ــ

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

واحساسها بالارتباط مع رجل لا تميل اليه ابدا وليس بينها وبينه أي توافق أو امتزاج ، مدفوعة أبدا بغنم شخصي . حتى ولو كان السيد لوجين مصنوعا من سبيكة من الذهب او منحوتا في قطعة من الماس، فان دونيا ما كانت لترضى أن تكون المحظية « السرية » الشرعية للسيد لوجين . فلم اذن وافقت الان ؟ ما هذا ... آه ... أي سر غامض ؟ ان الامر واضح جدا : فهي ما كانت لترتضي ذلك من أجل نفسها أو من اجل رفاهها حتى ولو كان في ذلك انقاذا لها من الموت ! فهي لم تكن لتبيع نفسها هكذا.. لكن اذا كان الامر من أجل شخص آخر، انها في هذه الحالة تبيع نفسها.. نعم انها تبيع نفسها ! اذا كان الشخص الذي تضحي من اجله يأتي في منزلة أرفع من منزلة نفسها ! اي اذا كانت تحبه حب عبادة ، وهنا ينجلي السر ! انها تبيع نفسها من اجل امها واخيها ! انها تفرط في كل شيء الا في هذين ! نعم .. اننا نحاول في بعض المناسبات قتل عواطفنا ، فنحمل حريتنا الى السوق نعرضها ، حريتنا وسعادتنا وراحتنا حتى وضميرنا .. نعم كل شيء ! لتهلك حياتنا اذا كان في هلاكها اسعاد المخلوقات التي نحبها ونرجو لها السعادة ! بل اننا نمضي الى أبعد من هذا ، فنبتدع ما يحلنا من ذمتنا ، ونستعير حكمة اليسوعيين لنعتقد خلال وقت ما ، اننا قمنا بواجبنا ، ونقنع انفسنا بان ما كان ، ان هو الا أحسن ما يمكن أن يكون ، وأنه طالما أن النتيجة ستكون حسنة ، فان الوسائل الى بلوغ هذه النتيجة تجد ما يبررها . نعم نحن هكذا .. والقضية في منتهى البساطة والوضوح . من الواضح ان روديون رومانوفيتش راسكولينكوف ـ اي انا ـ هو الذي يأتي في الصف الاول من هذه القضية ، وهو محور التضحية ! كيف لا ؟ ينبغي دعم سعادة هذا « الراسكولينكوف » وضمان حريته ومثابرته على دروسه في الجامعة وتأمين عمل شريف له في مكتب مرموق يكون شريكا فيه فيصبح غنيا .. ولم لا ؟ سوف يتذوق لذائذ الشهرة وطعم الظفر حتى ولو كان في نهاية ايامه ! أما الام فهي ليست بذات موضوع

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

هنا ... المهم هو ابنها روديا « رودياها » الابن المدلل ، الابن البكر ! كيف لا تضحي من أجل ولد بكر « كهذا » بفتاة ـ كدونيـا ـ ؟ آه ايتها الاخوات العزيزات الظالمات .. أعتقد ان الاستعداد للوصول الى نهاية تشبه تلك التي تردت فيها سونيا ليس بعيدا اذا كان في سبيل اسعاد روديا ! نعم .. سونيا .. مارميلادوف ، سونيا الخالدة التي ستبقى أزلية ما بقي العالم ...

يا الله .. هل فكرتما في التضحية التي أنتما بصددها ؟ هل قمتما بهذه التضحية اذن ؟ هل قارنتما بين قواكما ومصالحكما ؟... هل وجدتما ذلك معقولا ؟ أتدرين يا عزيزتي دونيا ان مصير سونيا ليس أحط من مصيرك فى عيشك مع لوجين ؟

ان امي تقول « ان المسألة ليست مسألة حب متبادل مسبق » . لكن كيف يمكن أن يقوم هنا حب أو مجرد ميل ، طالما ان الازدراء والاحتقار والتوتر هي كل ما يبدو الى الآن ! أولا يساوي هذا مصير تلك الفتاة التي دفعت الى البغاء واضطرت الى « الاحتفاظ بالنظافة » .. هل هناك فارق بين المصيرين ؟ انا لا أجد فارقا .. انا افهم معنى «النظافة» ان « نظافة » « لوجين » تعادل « نظافه » سونيا . لعلها اكثر سوءا واشد حقارة واكبر مقتا .. نعم انها اكثر من ذلك ؛ لانك انت يا دونيا ، تملكين بعض الرفاهية ، بينما الامر بالنسبة الى سونيا هو اجتناب الموت جوعا .. ان هذه « النظافة » يا دونيا ، هذه النظافة تكلف غاليا .. وغدا ، لما ينهار الثقل ساحقا قواكما ، لن يكون الندم ممكنا .. لن يتبقى لكما الا الدموع والاحزان .. والالام واللعنات ! دموع ساكنة تذرفانها بهدوء ، لانكما لستما « مارتا بيتروفنـا » ... وانت يا امي ماذا سيحل بك ؟ انت منذ الان قلقة حزينة معذبة ! فماذا يكون حالك عندما تبصرين بوضوح ... وانا .. نعم انا .. من

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

ظنتماني ؟ انا لا اريد تضحيتك يا دونيا ، كذلك لا اريد تضحيتك يا أمي الصغيرة ! ان ذلك لن يكون وانا على قيد الحياة .. نعم لن يكون .. لن احتمل هذا ولن اتقبل به !

ثاب راسكولينكوف الى نفسه بعد طول استغراق ، فتوقف برهة كأنه يعيد النظر فيما قال .. وراح يخاطب نفسه معتفا :

— لن يكون ؟ .. ماذا تفعل انت لتمنع ذلك ؟ هل تمنعها عن ذلك ؟ وبأي حق من فضلك ؟ ماذا تستطيع ان تعوضهما به او أن تعدهما بتحقيقه لقاء هذا الحق الذي تريد ممارسته ؟ أأن تكرس لهما مصيرك ومستقبلك « عندما تنهي دراساتك وتجد وظيفة تشغلها » !؟ ان هذه النغمة معروفة فضلا عن أنها تنبىء بالمستقبل .. نعم المستقبل . بينما نحن نعيش في الحاضر . فماذا أعددت لهذا الحاضر ؟ انك قانع بالعيش على فتات مائدتهما .. وهذا المال الذي انفقته وستنفقه ، أو ليس من القروض التي تتداركانها لك ؟ أليس ما استطاعتا اقتطاعه من المائة روبل التي تتقاضيانها فى العام ؟ أليس كذلك مما ستقترضه أمك بفضل تعارفها بآل سفيدريكايلوف ؟ كيف تحميهما من آل سفيدريكايلوف ومن هذا الـ : اتاناس ايفانوفيتش فاخروشين ايها المليونير المنتظر ؟ هل تظن نفسك من الآلهة حتى تتصرف بمقدراتهما ؟ لسوف تجد أمك وقتا كافيا خلال السنوات العشرة المقبلة لتفقد ابصارها لكثرة ما تنهك عينيها بحياكة « الشيلان » والقفازات ، بينما تكون الشابة قد فقدته لكثرة ما تذرف من دموع .. واختك ؟ تصور قليلا ماذا سيحدث لاختك خلال عشر سنين فهل فهمت ؟..

وهكذا كان الشاب يتعذب ويتألم بهذه الاسئلة والمحاكمات ، وينير كوامن غضبه وكأنه يجد متعة في ذلك ... انما الجدير بالذكر أن تلك الاسئلة لم تكن جديدة تماما بالنسبة اليه ، اذ لم يكن لديه شيء غير

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

منتظر .. بل أنه كان يشعر بها منذ زمن طويل ، كانت هذه القضية ماثلة امام عينيه ، تنمو وتترعرع حتى اتشحت منذ حين بوشاح المعضلة المخيفة ، المعضلة الموحشة المروعة التي تحرق دماغه وقلبه دون هوادة ، متطلبة جوابا حاسما كان يؤمن أنه لن يكون ! وجاءت رسالة أمه فكان لها في نفسه وقع الصاعقة .. نعم ان الوقت اليوم ليس وقت الشكوى والتحسر ومعالجة المسألة سلبيا ، اذ انه ثبت لديه مواقع « آ + ب » ان المسألة صعبة الحل ، فكان يجب والحالة هذه الشروع في امر فوري وبأسرع ما يمكن . كان ينبغي له أن يتخذ قرارا مهما كان الامر ، بالغا ما بلغ من خطوره ؟

CVISION
TECHNOLOGIES

كان يتساءل محنقا : « هل أضع حدا لحياتي ؟ هل أقبل الوقائع واحتملها ، خانقا في نفسي كل شعور بالنقمة والثورة والتمرد .. هل أتنازل عن حقي في الحياة : حقي في العمل ، حقي في الحب ؟ .. »

تذكر فجأة السؤال الذي طرحه مارميلادوف مساء امس حين قال :

ـ « هل تفهم يا سيدي ، هل تفهم معنى جملة : « لم يعد يعرف أين يذهب وانى أين يقصد ؟ » هل تفهم معنى هذا ؟ يجب أن يكون لكل انسان جهة يذهب اليها !.. »

ارتعدت فرائصه فجأة وعادت الفكرة التي كان يهدهدها في خياله امس ، تمثل امام عينيه . لم يرتعد لان الفكرة القديمة عادت الى الظهور : كان يعرف سلفا انها ستخامره ، كان يحس بها انها تلاحقه وتشق لنفسها طريقا لتصل الى الصف الاول من معروضات فكره ، كان ينتظر أوبتها ... ثم ان الفكرة لم تكن كتلك التي كان يشعر بها امس او منذ شهر .. لان تلك كانت أشبه بالخيال ، الخيال المجرد . أما فكرة اليوم ، فكانت مختلفة كل الاختلاف ، انها اكثر من مجرد حلم ، انها تبدو بشكل جديد مجهول منه .. كان يفهم سبب هذا التبدل

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

ومؤداه ..

اندفع الدم الى رأسه وغشيت عينيه سحابة ، فبدا كل شيء قاتما .. راح يتلفت حوله متلهفا باحثا عن شيء .. مقعد مثلا . لانه كان يشعر برغبة عنيفة فى الجلوس .. كان يسير حينذاك في شارع « ك » ... فأبصر بمقعد على بعد مائة خطوة من مكان وقوفه ! اندفع الى حيث كان المقعد بكل ما فى ساقيه من قوة . لكن حادثا وقع له فى الطريق استلفت انتباهه وأخره عن غايته .

كانت أبصاره عالقة بالمقعد الذي يقصد اليه ، فاذا بامرأة تسير على بعد عشرين خطوة أمامه . لم يعرها اي اهتمام فى البداية ، كما كان شأنه في كل ما يحيط به ، اذا كان مشغول الفكر مستغرقا في خواطره ... وكثيرا ما وقع له أن عاد الى غرفته دون أن يعلم بأي الشوارع مر ، وكيف وصل الى حيث كان ... كان يسير هكذا عفويا دون تقدير ولا تدبر .. غير أن هذه المرأة التي كانت تمشي أمامه ، لم تكن تخلو من شيء شاذ يستوقف الانتباه للوهلة الاولى ، شيء بدأ يحتكر تدريجيا كل اهتمامه ، حتى نسي كل شيء الا التحديق فيه والتطلع اليه ! أراد اكتشاف هذا السر الذي يجعل تلك المرأة حافلة بالشذوذ الغريب ، كانت تسير في ذلك الجو الحار الخانق ، عارية الرأس دون مظلة وقفازات ، وكانت تطوح ذراعيها بأسلوب مضحك . كانت تلبس ثوبا من الحرير الرخيص ، غريب التكوين ، يبدو كأنه لا يجد مستقرا على جسد لابسته ويكاد يختلف عنه لولا رباط خفيف يثبته فى مكانه . ثوب ممزق ابتداء من التقاء الجزع بالساقين ، تتدلى منه قطعة انفصلت عن مجموعه وراحت تتأرجح كلما تحركت صاحبته ... كانت تلف عنقها العاري « بلفحة » صغيرة لا تكاد تستره . لم يكن هذا وحده يستوقف النظر ، بل المرأة نفسها . اذ كانت تسير بخطى غير متزنة

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

تتعثر في مشيتها وتتمايل يمينا وشمالا . مما ايقظ فضول راسكولينكوف، فأدركها في اللحظة التي بلغت فيها المقعد، وتهالكت على جانبه ، ملقية رأسها على المسند مغمضة عينيها اللتين انهكهما ولا شك التعب .. كانت نظرة واحدة اليها تكفي ليعرف الناظر أنها مخمورة تماما ... فبدا المشهد لعينيه غريبا شاذا حتى أنه ود لو كان مخطئا ..

كان يرى أمامه فتاة ذات وجه صغير يدل على سنها المبكرة ، فهي لم تكن تبلغ السادسة عشرة من عمرها ، دقيقة التكوين تحيط برأسها ثروة من الشعر الذهبي الاشقر ، جميلة الوجه منتفخته ! كان يبدو عليها أنها لا تعي ما حولها .. فقد عقدت ساقيها الواحدة فوق الاخرى فظهر منهما أكثر ما يجمل ظهوره عادة ، مما يدل على انها لم تكن تشعر بوجودها في الشارع .

لم يجلس راسكولينكوف لا ، ولم يمض في طريقه كذلك ، بل وقف يتأمل الفتاة دون أن يصل فى قراره الى رأي حاسم .. كان ذلك الشارع مقفرا معظم الوقت ، أما فى تلك الساعة (الواحدة بعد الظهر) وفي مثل تلك الحرارة الخانقة ، فان مرور الناس فيه يكون غريبا حقا . مع ذلك فقد كان هناك سيد يقف على مسافة خمس عشرة خطوة ، منتحيا جانبا فى ممشى بين اشجار الشارع ، يبدو عليه انه ينتظر بدوره ان تسنح له فرصة للاقتراب من الفتاة المخمورة ، تنفيذا لرغبات معينة! ولعله شاهدها هو الاخر فلاحقها، ولكن راسكولينكوف عرقل مسعاه بظهوره . فكان ذاك يلقي عليه نظرات حاقدة دون أن يشعر بذلك ، وينتظر بفارغ الصبر أن يمضي ذلك المتطفل حتى يحل محله . كان الامر واضحا لا يحتاج الى تمحيص . فهذا السيد في الثلاثين من عمره متين الجسم ممتلىء الجسد مزدهر الوجه ، ذو شفتين ورديتين يزينهما شارب صغير ، يرتدي ملابسا تدل

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

على أناقة كبيرة . اذن ؟ لقد أصبحت الغاية معروفة !

شعر راسكولينكوف بغضب جامح . وود بجدع الانف لو يوجه اهانة الى ذلك الديك الرومي .. فاقترب منه وقد ضم قبضتيه انفعالا وصاح به وهو يكشر عن أسنانه التي غطاها الزبد !

ـ أنت يا سفيدريكايلوف .. ماذا تبحث هنا ؟

فقلب السيد حاجبيه لدى سماعه الاسم الذي اطلقه راسكولينكوف استعارة عليه ، وقال بلهجة خطيرة وترفع مرموق !

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ ابرح هذا المكان فورا .. هذا ما أردت أن أقوله !

ـ كيف تجرأ على تلفظ بهذا الكلام أيتها الحشرة ؟.. وهز سوطه بيده ! فلم يمهله راسكولينكوف وارتمى عليه دون ان يفكر بان خصمه الضخم يساوي اثنين من حجمه ! وفي تلك اللحظة ، شعر بيد تقبض عليه بشدة من الخلف . واذا برجل من رجال البوليس يتدخل في الامر قائلا :

ـ أيها السادة : المرجو تجنب المشادة في مكان عام ...

ولما شاهد راسكولينكوف صاح به :

ـ من أنت يا هذا ؟ وماذا تريد ؟..

نظر راسكو ليبنكوف بجرأة الى رجل البوليس . كان له سالفان أشبهان يضفيان على وجهه النبيل ذي التقاطيع الدالة على النباهة والذكاء ، لونا من الوسامة ! قال :

ـ انني أريدك أنت بالذات !

ثم أمسك بذراعه وأردف :

ـ انا طالب علم سابق واسمي راسكولينكوف اذا كان يعنيك معرفته .. واستدار نحو « الديك الرومي » وقال :

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

ـ وانت ، تعال معي ، سأريك شيئا .. ومشى نحو المقعد الـــذي تخاذلت عليه الفتاة يرافقه الشرطي وأردف :

ـ أنظر ، انها مخمورة تماما ، لقد رأيتها تسير على غير هـــدى في الشارع . ومن يدري من أين خرجت ومن هي ! غير انه من الواضـــح انها ليست محترفة . انها على الارجح فتاة مسكينة ، ائتمر بهـــا حتى آغريت على الشرب فثملت .. ولعل هذه هي المرة الاولى التي تتذوق الخمرة فيها ... لقد أريد بها شر فنصب لها هذا الشرك الذي تردت فيه ! لعلك تفهم يا سيدي ما أعني .. لقد ألقي بها الى الشارع بعد أن نال منها الانذال ما يشتهون ...أنظر الى ثوبها الممزق وكيف لبسته أو بالاحرى كيف أنزلت فيه .. من الجلي أنها لم تلبسه بنفسها ، انهـــا ايد غير مجربة تلك التي ألبستها هذا الثوب .. أنها أيدي الرجال .. والان الق نظرة على هذا السيد السمين الذي كدت اتشاجر معـــه منذ قليل .. انني لا أعرفه بل إنني رأيته اليوم للمرة الاولى .. لقـــد شاهدها هذا السبد النبيل وهي على حالها هذا من الثمل وفقـــد الحواس ، وقد رأيتها لا تعي ما تعمل ولا تستطيع التمييز بين الخـــير والشر ، فاراد أن يقترب منها ليفاجئها في هذه الحال ويقودها الى أي مكان ... ثق انني لست مخطئا فيما أقول .. لقد شهدته بنفســـي يرقبها ويحصي حركاتها ويتبعها . فكان حضوري عـــائقا غير منتظر . وهو ينتظر أن أبرح المكان لينفذ مأربه . انظر كيف ابتعد بعـــض الشيء وراح يتظاهر بلف « سيجارة » ... فكيف السبيل لانتزاع هذه الفتاة من براثنه ؟ كيف السبيل لاعادتها الى ذويها ؟

أدرك الشرطي على الفور ماذا هناك وراح يفكر . كانت نوايـــاه حيال الرجل السمين غير خافية . انما كانت هناك عقبة من نوع آخر .. تلك هي الفتاة المخمورة . انحنى عليها يتفحصها عن قرب ، وبـــدت

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

على وجهه آيات الشفقة والحنان ودمدم قائلا :

ـ يا للطفلة المسكينة ! لا زالت طفلة تماما .. لقد خدعوهـــا ولا شك .. هذا واضح ! هل تسمعين يا آنسه .. أين تقطنين ؟

وفتحت الصغيرة عينيها المتعبتين وقد اصطبغتا بلون الدم ، وحدجت سائليها بنظرة بلهاء ، ثم حركت ذراعها ملوحة وكأنها تحاول طردهما .

بحث راسكو لنيكوف في جيبه واخرج عشرين كوبيكا قدمهـــا للشرطي وقال له : أرجو أن تستدعي عربة وأن ترافقها الى منزلها اذا كنت تعرفين عنوانها ! ولكن كيف السبيل لمعرفة العنوان ؟

أما الشرطي فقد عاد ينادي الفتاة بعد ان أودع المال في جيبه :

ـ يا آنسة ، يا آنسة ، سوف أقودك بنفسي فالى أين تذهبين ؟ أين

تمتمت الفتاة وهي تلوح بذراعها قائلة :

ـ اغرب عن وجهي أيها « الكلاب » ... دعني بسلام .

بدت امارات الالم على وجه الشرطي وراحت تتنازعه عوامـــل مختلفة بين اشفاق وانتصار للفضيلة المنتهكة ، واستنكارا للنعت الذي اطلقته عليه . وقال مسترسلا :

ـ كم هو مخجل ما انت فيه يا آنستي ...

ثم خاطب راسكولنيكوف مرة ثانية وهو يتفحصه من رأسه وحتى اخمص قدميـــه :

ـ هنا الصعوبة الحقيقية ... نعم هنا العقبة ... انها لا تعي شيئا . فهل لقيتها بعيدا عن هنا ؟

ـ لقد قلت لك انها كانت تسير امامي تائهة شاردة اللب وهـــي

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

تتمايل وتترنح ، ولم تكد تصل الى هذا المقعد حتى تهاوت عليه !

ـ يا الهي كم هو مخجل هذا الذي يجري في هذه الايام . فتاة كهذه ، بل طفلة لم تشب عن الطوق تثمل ... لقد غرر بها حتما ليس هناك شك ابدا . ان ثوبها ممزق كله ... آه من اولئك الفجار الذين يسابقون الوقت ويمضون الى اهدافهم من اقصر الطرق !.. لعلها من عائلة كريمة اصيبت بالفاقة والعوز . فالمدينة تحفل بهذه العائلات البائسات اليوم ... ان الناظر اليها يخيل اليه انها آنسة فاضلة ...

صمت اليها الشرطي برهة وعاد الى المخمورة يحاول اعادتها الى صوابها ... لعل له هو الآخر بنات « يفضلن ان يعتبرن آنسات فاضلات » يتبعن الاساليب السائدة بين الفتيات ، المقتبسة عن ابتكارات مصطنعة لا تمت الى حسن التربية في شيء ...

بادر راسكولنيكوف يقول :

ـ المهم ان لا تدعها فريسة لهذا السافل ، فهو قمين بتدنيسها من جديد ! ذلك ما يريد وليس من العسير تبيانه ... الا ترى انه لا ينصرف ... الفاجر !

كان يتكلم بصوت مرتفع وهو يشير الى السيد ... وسمعه هذا فكاد أن يغضب من جديد .. غير انه تمالك واكتفى بأن القى على الطالب المفلس نظرة تنطوي على الازدراء . واخيرا استدار على عقبيه ، وراح يمشي مبتعدا ، ثم توقف من جديد بعد قطع عشر خطوات ..

قال الشرطي بلهجة حالمة :

ـ ان لا نتركها له امر ميسور ، لو انها ذكرت لنا اين تقطن ..

وعاد يهزها ويصيح : يا آنسة ، يا آنسة !

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

فتحت الفتاة عينيها وبدت كأنما استعادت بعض حواسهـــا ، ونظرت بامعان الى الشرطي ورفيقه ، ثم نهضت وسارت في الاتجـاه الذي جاءت منه . ودمدمت وهي تلوح بيدها شأن من يـطرد انسانا يضايقه : « المغفلون ! مـاذا يريدون من مـلاحقتي » وراحت توسع الخطى وهي تتعثر وتترنح . اما الرجل الانيق السمين، فقد راح يتبعها من جديد محافظا على المسافة التي بينهما ، دون ان يغادر الممشى بين الاشجـــار !

اثارت هذه الفعلة حفيظة الشرطي ذي الشاربين الكبيرين ، فقال لراسكولنيكوف بلهجة العزم والتصميم :

ـ لا تبتئس ... لن ادعها له ! وتبع الفتاة ومطاردهـــا ... وقبل ان يبتعد عن الفتى اردف يقـول : كـم انتشر الفسق والفساد في هذه الايام ...! اما راسكولنيكوف ، فقد كان تلك اللحظة كمـن وخزته ابرة نفذت خلال جسده . شعر برد فعل عكسي تجاوب صداه في نفسه فهتف ينادي الشرطي ، ولما استدار هذا نحوه مستجيبـــا لندائه قال له :

ـ دعك من هذا ... لم تحشر نفسك فيه ؟ دع الرجل يتبعها ، دعه يبحث عن تسليته ! ماذا يهمك منه !

فاتسعت حدقتا الشرطي وظن انه حيال مخبول ذاهب العقل ، فلم يعد ولم ينفض يده من المهمة التي آلى على نفسه اتمامها ، بل اكتفى بان لوح بيده ومضى وهو بين مصدق ومكذب يتبع الرجل الانيق والفتاة . وما ان اصبح راسكولنيكـوف وحيـــدا حتى خـــاطب نفسه بقولـــه :

ـ لقد حمل معه العشرين « كوبيكا » التي كنت املكهـــا .

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

يا للشيطان ... لسوف يجعل الآخر يدفع له بعض المال ليترك لـــه الفتاة ! وسنكون تلك خاتمة القصة .. يا الله ! هل لمثلي ان ينصب نفسه حاميا للغير ؟ هل لي الحق بالتدخل ؟ مـــاذا يهمني اذا افترس الناس بعضهم بعضا ؟ ثـم كيـف سمحت لنفسي باعطـــاء العشرين « كوبيكا » التي كانت معي ؟ هل هي تخصني فعلا ؟

شعر ازاء هذه الافكار والاسئلة ، بحمل ثقيل يهبط على صدره يكاد يكتم انفاسه ! جلس على ذلك المقعد الوحيد وتاهت افكـــاره في سماء الخيال ... لقد كان من العسير بالنسبة اليه ان يفكر في اي شيء ... كان يتمنى لو فقد الوعي وخسر الاحساس ، حتى اذا مـا استفاق ، كان كل شيء قد اضحى منسيا ، فيعود الى حيـــاة جديدة لا افكار محزنة فيها ولا تفكير ... القى نظرة الى حيث كانت الفتـاة جالسة ولم يتمالك نفسه ان قال :

ـ يا للفتاة المسكينة ، سوف تعود الى وعيها وسنبكي ، ثم تطلع امها على كل شيء ... ولسوف تضربها امهـــا اول الامر ، لسوف تجلدها بشدة وقسوة واذلال . بل لعلها ستطردها مـن البيت ! واذا افترضنا جدلا انها لن تطردها ، فانها لن تعدم واحدة مثـل داريـــا فرانتزوفنا تشتم رائحة الفريسة وتحوم حولها . ولسوف تبدأ الفتاة بالتنقل هنا وهناك ، وبعدئذ سيكون المستشفى (والحال ابدا كذلك بالنسبة للخاطئات اللاتي يعشن في كنف امهات شريفات يفضلـــن التخلص من عارهن بصمت) ولن تخرج منه حتى تعود اليه ! وهكـذا فانها لن تبلغ التاسعة عشرة من عمرها ، حتى تصبح سقيمة عليلة وتكون قد انتهت ... النهاية نعم ... لقد شهدت حالات مشابهة ! ولكن ماذا يهم ؟ يا للشيطان ... يبدو ان هناك نسبة مئوية ينبغي ان تدفـع في مكان ما ... الى الجحيم ، نعـم ذلك ضروري لانعـــاش الاخرين

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

والابقاء عليهم . نعم ... نسبة مئـــوية ... يا لـــه من تعبيـــر جميل ... كلمات منمقة مطمئنة ذات طابع علمي ... اذ من ذا الذي يرهب هذه الكلمة : نسبة مئوية ! اما لو كانت كلمة اخرى ... لكان الحال اقل طمأنينة ... ماذا مثلا لو ان دونيا ادخلت في هذه النسبة على شكل من الاشكال؟ النسبة الواجبة الدفع اليوم او في المستقبل؟..

وفجأة ثاب الى رشده وتذكر انه خرج من غرفته لسبب ما فهتف:

ـ رباه ... الى اين امضي ؟ كان هناك سبب وجيه دفعني الى الخروج من غرفتي ! نعم ... نعم ... لقد خرجت مباشرة بعد قراءة الرسالة ... آه لقد تذكرت ، كنت اقصد ايل سان بازيل ... نعـم كنت اريد الذهاب عند رازوميخين ! ولكن لماذا اذهب الى هنـــاك ؟ كيف طرأت لي فكرة الذهاب الى رازوميخين فجأة ؟ غريب ...

ادهشه تصرفه ... لقد كان رازوميخين احد اصدقائه القـدماء في الجامعة ! ومن الغريب انه لما كان يتابع دروسه في الجامعة ، لـم يكن يختلط بزملائه ويرتبط بهم بصداقات ، حتى انهم جميعا تنكروا له وتغافلوا عن وجوده . فكان لا يزور احدا ولا يسره ان يـتقبـل احدا ... لا يشترك في اجتماعات الطلبة ولا في مناظراتهم ، عازفـا عن لهوهم ومجونهم ... وكان منصرفا الى العمل منكبا على الدراسة، فاستطاع بذلك اكتساب عطف زملائه . لكنه لم يكن محبوبا مـن احد ! كان فقيرا معدما مشتطا في كبريائه عزوفا عن الناس ... كان يبدو أبدا وكأنه يتدبر امرا في سريرته ! كان بعض زملائـه يعتقـدون ان له اسلوبا كريها بالنظر اليهم ، حتى لكأنهم اطفال ، ولكأنه متفوق عليهم بالذكاء والمعرفة وادراك الامور ، وكان يعتبرهـم دونـه ايمانا ومعتقـــدا .

اما مع رازوميخين ، فقد كان الامر مختلفا ، اذ كـان اكثر ميلا

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

اليه ، اكثر صراحة معه واشد تعلقا به من كل الزملاء الآخرين ... ولم يكن من الممكن معاملة رازوميخين خلاف ذلك . فهو شاب يتفجر لطفا وايناسا ، بسيطا نقي السريرة طيبا حتى السذاجة ... وكان ذلك المظهر الساذج يخفي وراءه تعمقا في الامور وكرامة موفورة ... فكان محبوبا من اقرانه جميعا وخصوصا اولئك الذين عرفوه واختبروه . نعم ... لقد كان بسيطا بل وساذجا احيانا ، ولكنه لم يكن قط احمقا ... كان ذا مظهر جذاب بقامته المديدة ونحول وجهه ، ولحيته المهملة وشعره الاسود ... كان يظهر احيانا على حقيقته جبارا عربيدا ... حتى انه ذات مرة ، بينما كان خارجا مع اصدقائه الى المدينة ، تغلب بضربة واحدة على نقيب في الجيش ، يبلغ طوله ستة اقدام تقريبا ... وكان يستطيع ان يشرب بشكل مريع ، كما كان يستطيع الامتناع عن الشراب وعدم الاقتراب منه . كان كذلك يسترسل احيانا في تصرفات مشبوهة ولكنه كان يعرف دائما كيف يتخلص من نتائجها وينأى بنفسه عن مضاعفاتها ، وكانت هناك ميزة اخرى تضاف الى مزايا رازوميخين الكثيرة : ذلك انه ما كان يستسلم امام اية خيبة أمل تصيبه ، ولا يتراجع اذا ركبه النحس ! كان يستطيع ان يعيش في حجر وان يحتمل آلام الجوع ولذعات البرد وآلامه ، دون ان يتذمر . لانه كان فقيرا يعول نفسه بنفسه ويبحث عن المصادر التي تغذيه بايراد مناسب ، ويزاول كل الاعمال ... كان يعرف ان هناك عددا لا يحصى من الحيل التي يمكن اللجوء اليها في العمل ـ طبعا ـ ... ولقد امضى ذات مرة شتاء كاملا دون ان تدخل النار حجرته . مع ذلك ، فقد كان يؤكد ان ذلك افضل ، لان الانسان ينام بهدوء وهناء اذا كان يشعر بالبرد ! لقد كان في ذلك الوقت خارج الجامعة .. نعم لقد ترك الدرس ، ولكن لفترة قصيرة كما كان يقول . كان يعمل جاهدا للتغلب على الظروف القاسية وتيسير الدراسة ، ولم

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

يكن راسكو لنيكوف قد زاره منذ اربعة اشهر • وكان رازوميخين يجهل عنوانه بدوره ! ولقد لمحه ذات مرة منذ شهرين مضيا ، لكنه ادار وجهه حتى لا تقع عينه عليه • بل انه انتقل الى الرصيف المقابل كي ينجو من المقابلة ••• ولقد لاحظ رازوميخين ذلك ، غير انه تابع طريقه دون ان يزعج « صديقه » •••

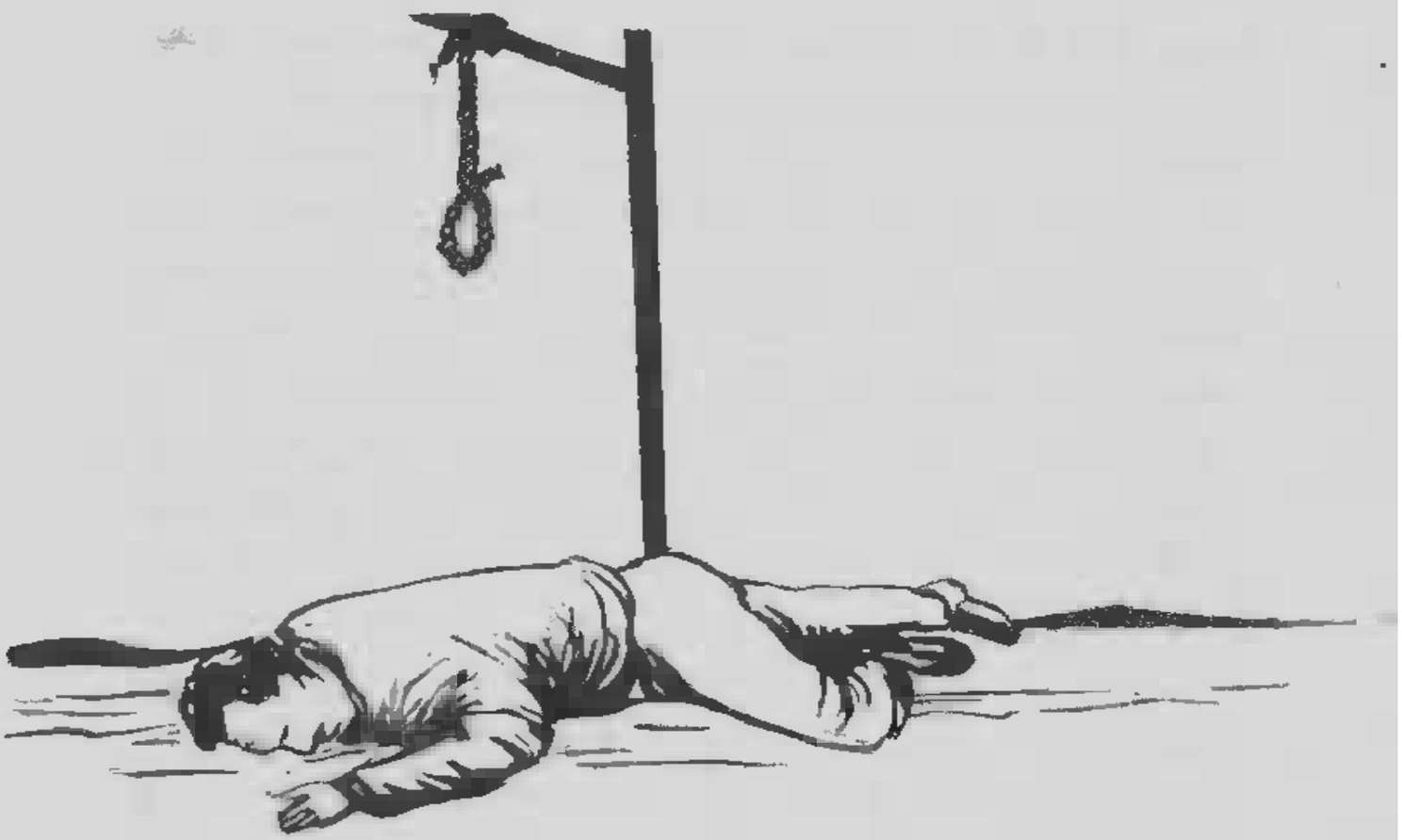

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

٥

فكر راسكولنيكوف في امره وهو على حاله ذاك ، وراح يخاطب نفسه قائلا :

ـ بالامس عزمت على زيارة رازوميخين . كنت اريده على ان يجد لي عملا على طريقته ... عملا افيد منه : تدريس مثلا ... اي عمل . اما الان ، كيف يمكن ان افيد منه ؟ لنفرض انه اوجد لي من ادرسهم ، وانه تقاسم معي آخر « كوبيك » يملكه ـ هذا اذا كان يملك شيئا ـ ليشتري لي احذية وملابس اظهر بها ، فماذا يكون ؟ هل هذا ما انشده بالفعل ؟ الحقيقة ان زيارتي لرازوميخين ضرب من الحماقة ...

كان عزمه على زيارة رازوميخين يقلقه ويغمر روحه بعذاب مستمر ... بدا كأنه كان يعرف السبب الحقيقي لهذا العزم ... كان يقلب اوجه الرأي في هذه المسألة العادية ، ليجعلها تبدو ذات طابع خاص سيء ، فيفرغ ما في جعبته من لوم وعتاب على نفسه منددا زاجرا ... كان يتساءل : « هل صحيح انني فكرت باصرف كل شيء بمساعدة رازوميخين ؟... » كان يفكر ويفكر ... ويضغط على جبهته بيده ، حتى واتته فكرة ... فكرة مفاجئة غريبة كانت محصلة تردده العميق العنيف . ناجى نفسه يناقشها بهدوء كمن اتخذ قرارا نهائيا :

ـ هه ... سأذهب الى رازوميخين ... سأذهب الى رازوميخين ولا شك ... ولكن ليس الآن . سأذهب اليه صباح اليوم التالي « للعملية » ، بعد ان تكون قد انتهت بنجاح ، لاعيد معه بناء كل شيء على قواعد جديدة ! ثم استدرك بعد ان ثاب الى نفسه وقال : « وبعد

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

ذلك ؟ هل حقيقة سيكون « ذلك » حسنا لا غبار عليه ؟ هل يعقل ان يكون كذلك ؟ »

غادر المقعد الذي جلس عليه ، بل انتزع نفسه عنه انتزاعا ، ومضى بخطى حثيثة، وكأنه يهرب من شيء يتابعه . تاقت نفسه للعودة الى بيته ... الى حيث بدأ ... ولكن هذه الفكرة اثارت في اعماقه الاشمئزاز . فهناك .. في ذلك الحجر المرتفع المنزوي .. اختمرت تلك « العملية » في ذهنه منذ نيف وشهر ... اذن لا ينبغي ان يعود الى هناك .. ومضى دون ان تكون له وجهة يقصدها .

انقلب اضطرابه العصبي الى نوع من الحمى .. الى نوع من المرض ، فراح يرتجف وكأن البرد يهز جسده . رغم ذلك الحر الذي يشبه نار الاتون الملتهبة .. تسلط بمجهود جبار على اعصابه . واجبر حواسه على الانتباه ، وعينيه على التطلع فيما حوله بتدقيق ودقة ، عله يجد في المحيط الذي يمخر فيه ، مادة ترفه عن نفسه وتسليه . لكنه لم يوفق في هذا ايضا .. كان يعود من جديد الى احلامه وتخيلاته .. كان جسده وحده يعيش على الارض ، اما روحه وعقله، ففي مجاهل لا يعرف لها قرارا ... عادت القشعريرة تكتسح جسمه وتهزه .. فنظر حوله ليجد انه نسي ما كان يفكر فيه ، ونسي اين يمضي ... وهكذا اجتاز جزيرة « سان بازيل » كلها ، فبلغ نهر « بيفا الصغير » ، واخترق الجسر ثم استدار في طريق الجزر . تلطف الجو بعض الشيء بفعل المياه والنباتات الطفيلية التي تكسو المكان ، فكان لهذا التبدل في الجو اثره في تهدئة اعصاب الشاب بعض الشيء . وارتحت عيناه لهذا المشهد بعد ان انهكهما الغبار ... غبار الشوارع وذرات الجير .. ارهقهما منظر الابنية الكبيرة الضخمة وهي تسد امامهما المنافذ . وصل الى حيث لا غبار ولا عفن ولا اختناق ...

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

ولا ... ولا حالات ؛ غير ان هذه الراحة التي تشعر بها فترة وجيـزة ، فقدت بعد قليل بوجتها ، وانقلبت ثقيلة الوطء تنهك قواه . كــان يتوقف احيانا امام « فيلا » ضائعة بين الخضرة ، ليتطلع خلال الحاجز الخارجي . الى الشرفات وعليها نساء جميلات بكامل زينتهن . واطفال هانئون ، بعضهم يلعب في الحديقة وينادي الآخرين ... كانت الازهار تجذب انتباهه بصوره خاصة ... انها مخلوقات صامتة ..! وبـين الحين والحين ، كانت تطالعه مناظر الترف والنعيم ، بين عربات انيقـة وفرسان من الجنسين ، فكان يتابعهم النظر بفضول . ثم ينسى وجودهم حتى قبل ان يختفوا عن ناظريه ..! توقف مرة ليعد ما يملك من مال . فوجد ان ثروته تبلغ ثلاثين « كوبيكا » ، وتذكر انه اعطى رجل البوليس عشرين « كوبيكا » ، واعطى ثلاثة لناستاسيا من اجل الرسالة ، فيكون اذن ، قد منح آل مارمبلادوف مساء البارحة حوالي سبعة وعشريـن روبلا وخمسين « كوبيكا » كانت كل المبلغ الذي كان يملكه هــو- ثلاثون روبلا وقد اعطاها كلها لآل مارميلادوف . كانت دريهماته على كفه يحصيها . لكنه نسي لم اخرجها من جيبه وقام بعملية الاحصاء ... لا شك انه كان يحس سببا وجيها دفعه لفعل ذلـك . لكنه نسيـه ! وصدف ان مر امام دكان شواء ، فهاجت نفسه وتاقت الى الطعـام . فدخل المطعم وتناول فيه كأسا من الخمر (العرق) واكل شطيرة محشوة باللحم المبهر ... لم يكن قد شرب الخمر منذ امد طويل . لذلك فقد اثر القدح الصغير في اعصابه ، رغم انه مجرد قدح صغير ! فغـدت خطاه متثاقلة وطاب له ان ينام . لذلك عاد في طريق مسكنه ، لكنه لم يكد يبلغ جزيرة « بيتروفسـكي » حتى توقف منهوك القـوى ... فتنكب الطريق ودخل بين الادغال ، يرتمي علـى الحشائش حيث استغرق من فوره في نوم عميق .

يلاحظ ان احلام المرء في الحالات المرضية ، تمتاز غالبا برونـق

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

عادي والوان صارخة وتشابه عجيب مع الواقع . لكن تسلسلها واخراجها يبلغان من الواقعه ومن دقة التفاصيل مبلغا ، يجعلها تبدو بلوحه فنان عبقري . حتى ان الحالم نفسه لو استطاع رسمها في يقظته . لنافس فيها الفنانين الموهوبين امثال بوشكين وتورجينيف . انما الاحلام التي من هذا النوع ، احلام مؤلمة تترك في نفس المرء ذكرى باقية . وتحدث على نفسيته اثرا غير حسي تزيد في تحطيم اعصابه وتزعزع ثقته . كذلك كان الحال بالنسبة للحلم الذي تخيله راسكولنيكوف ...

حلم في طفولته هناك ... في مدينتهم الصغيرة ... عندما كان في السابعه من عمره .. ! وفي يوم كان يتجول مساء مع ابيه في ضواحي المدينة ، في جو مشبع بالغبار ، والحرارة شديدة الارتفاع ، والامكنة هي هي التي انطبعت صورتها في ذهنه ... بل ان الذكرى ما كانت لتوضح معالمها كما اوضحها الحلم . كانت المدينة الصغيرة قائمة في منطقة مكشوفة وكأنها الكف ... لم يكن يحيط بها مرتفع واحد ولا شجره واحدة ... وفي الافق البعيد ، كانت نقطة سوداء صغيرة ، تفضح وجود حرش صغير ... وعلى بعد خطوات من آخر بستان من بساتين المدينة ، كانت هناك حانة ... كبيرة كانت تترك في نفسه اثرا سيئا ، بل تخيفه كلما كان يمر بالقرب منها وهو يتنزه مع ابيه . كان فيها ابدا جمع غفير من الناس يتبادلون الشتائم والصراخ ، ويضحكون ويغنون اغنيات بذيئة ، وكثيرا ما كانوا يتضاربون ! وحول تلك الحانة كان عدد من السكارى بوجوههم البشعة تفوح منهم رائحة كريهة . فاذا صادفهم ، كان يلتصق بأبيه وهو يرتعد ..! وعلى مقربة من الحانة كانت هناك الطريق ، طريق مختصرة مغطاة بالغبار ... غبار اسود ، تنعطف على بعد ثلاثمائة خطوة على شكل مرفق ، ثم تدور حول المقبرة ... وفي وسط المقبرة

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

تقوم الكنيسة ، وهي مبنية من الحجارة ، ذات قبة خضراء ، كان يذهب اليها مرة او مرتين في العام ، اثناء القداس الذي كانوا يقيمونه على روح جدته المتوفاة منذ زمن بعيد يسبق ميلاده ! كان يحمل في تلك المناسبة قطعة من الحلوى « كاتو » موضوعة في صحن ابيض ، وملفوفة في منديل . كانت تلك الحلوى تصنع من السكر وعلى سطحها صليب من حبات الزبيب المغموسة في الارز ..

كان يحب تلك الكنيسة بصورها القديمة التي كانت غالبا دون اطارات ، ويحب الكاهن ذا الرأس المرتجفة ... كان الى جانب ضريح جدته الذي تغطيه قطعة كبيرة من البلاط ، ضريح صغير يرقد فيه اخوه الاصغر الذي توفي في شهره السادس ، فكان لا يعرفه كذلك ولا يحتفظ له في ذاكرته بأية صورة . كل ما في الامر انهم قالوا له بان ذلك هو ضريح اخيه . فكان كلما زار المقبرة يضع على صدره علامة الصليب بخشوع ورفع قبعته عن رأسه ثم انحنى ليقبل الضريح البارد !

كان يحلم في تلك اللحظة بأنه مع ابيه يسيران في الطريق الى المقبرة فيمران امام الحانة ... فيقبض على يد ابيه بشدة وينظر الى تلك الناحية ـ ناحية الحانة ـ برعب ظاهر ، فيجذب انتباهه امر غريب! كانت تدور فيها حفلة داعرة حقيقية : نساء « بورجوازيات » في البسة ايام الآحاد ونساء من العوام مع رجالهن وانواع مختلفة من المخلوقات التي تعيش في الاوساط المظلمة ... الطبقة السفلى ... كانوا كلهم سكارى بين نساء ورجال يرقصون وينشدون الاغاني ... وكان امام باب الحانة عربة غريبة الشكل ... ضخمة من ذلك النوع الذي تجرها خيول قوية متينة وتستعمل لنقل البضائع وزكائب الخمر ... كان يحب رؤية تلك الخيول الجبارة ذات الذوائب الطويلة والسيقان

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

المتينة ، تمشي براحة ، بايقاع متزن وهي تجر وراءها اثقالا كأنها الجبال دون ان يبدو عليها التعب وكأن احمالها ترفه عنها بدلا من أن تنهكها !

والغريب ان تلك العربة لم تكن تقطرها الخيول الجبارة القوية . بل كانت مقطورة الى « كديش » أعجف من ذلك النوع من الجياد التي يرثى لحالها ، والتي كثيرا ما شاهد مثلها ، وهي تجهد فى جر حمولة من الخشب أو القش على الطرق المخربة حيث تعرز العجلات الى محاورها فى الاتربة والحفر ، والفلاحون يسوطونها بوحشية وقسوة على ظهورها وأحيانا على وجوهها وعيونها حتى أنه كان يشعر بوقع السياط على جسده هو اشفاقا منه عليها فيكاد ينفجر من البكاء لولا ان تسارع أمه الى ابعاده عن النافذة موفرة عليه متابعة هذا المشهد الكئيب المفجع !

وفجأة ارتفع ضجيج كبير : فقد خرج من الحانة عدد من الفلاحين « الموجيك » الاقوياء وهم يغنون ويتضاحكون ويرقصون « البلالايكا » وهم على اسوأ حال من الثمل ، يرتدون قمصانا حمراء وزرقاء و « جواكيتهم » على اكتافهم . صاح احدهم :

ـ اصعدوا ... اصعدوا جميعكم سوف أنقلكم جميعا فاصعدوا ..

كان المتكلم فتى ضخم العنق منتفخ الوجه بلون اشقر مشبع بالحمرة .

ـ ايستطيع « كديش » كهذا أن يحملنا ؟..

ـ اسمع يا ميكوكا .. لا شك انك مجنون .. من ذا الذي يفكر فى ربط فرس هزيل كهذا الى عربة هائلة كهذه العربة ؟

ـ لعمري .. هذا حيوان تكدست على ظهره أعباء عشرين سنة وتزيد ..

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

تلك كانت الملاحظات والآراء التي تطايرت من الأفواه اثر الدعوة الغريبة التي تقدم بها ذلك الفتى الى أولئك السكارى ... غير أنها ملاحظات لم تزعزعه عن رأيه فهتف وهو يقفز الى العربة ويمسك بمقاود الحصان الهزيل :

ـ اجلسوا جميعا ... لسوف أحملكم كلكم .. لقد أعرن حصاننا الاشعل الى « ما تغيئي » وقد ذهب به منذ لحظات . وهذه الفرس ملكي أيها الاصدقاء .. انها كرب وأسى بالنسبة الي . واني أفكر احيانا فى أن اقتلها لانها لا تساوي الشوفان الذي تلتهمه .. هيا اصعدوا ولسوف أجعلها تمشي خببا ..

اخذ السوط فى يده وراح يهزه وكأنه يتلذذ سلفا بما سيذيق الحيوان المسكين من ضرب موجع أليم .

وصاح بعضهم يقول : ـ فلتصعدوا اذن .. ألم تسمعوه يقول أنه سيجعلها تطير خببا ..؟

وآخر يقول . ـ انها لم تخب منذ عشر سنين على الاقل .

وثالث : ـ بل ستخب ... لا تشفقوا عليها أيها الاصدقاء ، ليضربها كل منكم بسوطه .. ليستعد كل منكم .. ها .. انهالوا عليها بالضرب ..

راحوا يصعدون الى العربة .. عربة ميكولكا وهم يضحكون ويتبادلون السباب .. وجلس ستة اشخاص فيها بانتظار الاخرين ، لان المكان كان يتسع للكثيرين ، وحملوا معهم امرأة ضخمة ذات خدين بارزين مصبوغين . كانت ترتدي « صدارة » من القماش الهندي الاحمر وتحشر قدميها في حذائين عاليين ثقيلين .. وكانت تكسر بندقا بين أسنانها وتضحك بين حين وآخر .. كذلك كان الجميع يضحكون

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

... وكيف لا يضحكون وهذا الحطام الذي على شكل فرس مدعو للسير خببا بهذا الحمل الثقيل !

أخذ غلامان كانا فى عداد الراكبين سوطا ليساعدا به ميكولكا في مهمته القاسية .. مهمة جلد الحيوان .. وارتفعت الصيحات تحث الدابة على السير . واستصرخت هذه قواها ، لكنها لم تستطع أن تخب بل بالكاد استطاعت التقدم خطوة واحدة . كانت تضرب الارض، وهي تكاد أن تخرج من جلدها من ألم السياط الثلاثة التي كانت تنهب ظهرها وتنهال عليها كالبرد بينما تضاعف ضحك الركب وصخبهم ! وغضب ميكولكا وعبر عن غضبه بلسعات أشد قوة كما لو كان يعني ما يقول من أن الفرس ستخب . واندفعت من بين الجماعة التي بقيت على الرصيف فتاة صغيرة بدت معجبة بالمنظر . صاحت مستعطفة .

ـ دعوني اركب يا أصدقائي !

فأجابها ميكولكا ملء حنجرته :

ـ هيا اصعدي . اصعدوا جميعا ، سوف اقودكم الى منازلكم وسترون كيف سأثير حماس هذه الفرس . وراح يضرب ويضرب ويبحث عن أدوات جديدة ليستعملها فى هذه المهمة .

صاح الفتى :

ـ أبي أبي ، أبي ماذا يعمل هؤلاء ؟ أبي انهم يضربون الحصان الصغير المسكين ! فيجيبه أبوه :

ـ هيا بنا ، هيا بنا ، انهم سكارى قادرون على ارتكاب حماقة . دع هؤلاء المأفونين ، تعال لا تنظر اليهم ! وأراد أن يبعده عن المكان !

غير ان الفتى تملص من يد أبيه فاقدا أعصابه وهرع الى الحصان الصغير الذي كاد أن ينفق من الالم : فيستجمع أنفاسه وقواه ويعاود

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

الجر دون جدوى • وكان الركاب يصيحون :

ـ اضرب ، اضرب الى أن ينفق ، وعلى كل حال لن يتأخر ذلك ••

بينما صاح عجوز من النظارة مستنكرا هذا المشهد :

ـ أولست مسيحيا انت ؟ آجب بلا او نعم أيها الوحش !

واضاف آخر :

ـ هل رأيتم قبل الان حصانا صغيرا كهذا يجر حملا بهذه الضخامة ؟

وثالث موجها حديثه لميكولكا :

ـ أيها القذر •• ويجيب ميكولكا غير آبه بالاعتراضات :

ـ فيم تتداخلون ؟ انه حصاني أصنع به ما أشاء • ليصعد من يريد ، لسوف أجعله يسير خببا •

وفجأة انفجرت ضحكة هائلة طغت على صوت ميكولكا : ذلك أن الفرس لم تعد تحتمل الضرب الذي ينهال عليها ولم تكن تستطيع السير بحملها ؛ وكنتيجة طبيعية لغضبة الحيوان راحت تستعمل قائمتيها الخلفيتين دلالة على احتجاجها العنيف • حتى أن المحتجين أنفسهم لم يتمالكوا من الضحك • وهرع فتيان من « الشلة » فأمسكا بسوطين وراحا يلهبان الحيوان بالضرب الوجيع كل من جانب • وكان ميكولكا يشجعهما بقوله :

ـ اضربا ، اضربا على الانف والعينين والوجه •

ويصيح آخر من ركاب العربة : غنوا يا اصدقائي • نعم لنغنّ ، وسرعان ما رفعوا العقائر باغنية قذرة مبتذلة على أنغام الصفير وحركات الارجل في ضبط الايقاع بينما ظلت المرأة الضخمة تكسر بندقاتها بين أسنانها وكأن ما يجري لا يعنيها في قليل أو كثير •

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

ركض الفتى اذاً نحو الحصان واندفع الى الامام وهو يشاهد أولئك القساة يضربونه على عينيه وملء وجه وراح يبكي . كان قلبه يتفطر حزنا ودموعه تنهمر بغزارة ... أحس بالسوط يلمس جانب وجهه حينما كان أحد الضاربين يرفعه بيده لينهال به أداء لمهمته . غير أنه لم يشعر بالألم .. كان يصيح ويتلوى ويستصرخ عواطف الموجودين ويندفع نحو الرجل العجوز ذي اللحية المدببة الشائبة مستنجدا ، فيقابله هذا بهزات من رأسه شأن من اصدر حكمه وانتهى . وتحاول امرأة امساكه من يده لتخلصه من ذلك الجمع الحاشد ، فيفلت منها ويعود قرب الفرس .. الفرس التي كانت في تلك اللحظة على آخر رمق .

لم يكف ميكولكا عن الصراخ والغضب ، كان ينعت الدابة المسكينة بما يحضره من كلمات . ولما لم تستجب له ألقى السوط من يده واحتضن مقعدا كبيرا كان داخل العربة رفعه بيديه الى الاعلى بجهد بالغ وانهال به بضربة عاتية شرسة على ظهر الفرس المسكينة وهو يصيح معترضا على الاحتجاجات التي ارتفعت من حوله ويقول :

ـ انها ملكي ، ملكي !..

وصدر عن ارتطام المقعد صوت مكتوم بينما تعالت بين الظارة أصوات تقول :

ـ اجلدوها . لم لا تجلدون ؟ لماذا توقفتم ؟.. فيرفع ميكولكا المقعد ثانية الى أعلى وبهبط به من جديد على ظهر الحيوان التعس الذي سقط على مؤخرته ثم نهض كالمجنون واستجمع آخر ما تبقى له من قوى وجذب ، جذب دون أن يستطيع التقدم . والسياط الست والمقعد الضخم ترتفع وتهبط دون شفقة بقوة ووحشية وبشكل رتيب ، وميكولكا يكاد يجن غيظا لانه لم يجد طريقة يقتل بها الحيوان

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

بضربة واحدة . أما المتفرجون فقد قنعوا بابداء الملاحظات . فمن قائل :

ـ كم هو جلود هذا الحيوان ! وآخر :

ـ لن يعيش طويلا ، فقد دنت نهايته ! وثالث يزمجر :

ـ ان ضربة فأس واحدة هي وحدها قادرة على وضع حد لكل هذاء.

لم يكتفِ ميكولكا بكل ذلك ، وهو الذي أعماه الغضب .. ألقى فجأة بالمقعد جانبا ، وانحنى ينتش في عربته عن سلاح جديد ثم انتصب وفي يده عتلة من الحديد وصاح ملء حنجرته بحذر المجتمعين حول الدابة مما سيكون ، وانهال على ظهر الحصان بضربة صاعقة حشد فيها كل قوته فترنح الحيوان وسقط وهو يحاول جر العربة ، ولما أصابته الضربة الثانية هوى على الارض وكأنه جر من قوائمه ...

لم يشفق ميكولكا ولم يهز المشهد عواطفه ، بل قفز من العربة كالمجنون وهو يصيح : لنجهز عليها .. لنجهز عليها . وراح الناس يختطفون ما تقع عليه أيديهم : سوط ، عصا ، مقعد ، أي شيء وينهالون به على الفرس المحتضرة بينما كان ميكولكا واقفا قرب رأسها يهوي عليه بعتلته دون اشفاق حتى أن الحيوان المسكين اختلج أخيرا ومد عنقه الى اقصاه ثم زفر زفرة عميقة ونفق . وصاح صائح :

ـ لقد نفقت . وآخر :

ـ لم لم تخب ؟

وهتف ميكولكا وعتلته في يده وقد اختلط الدم ببياض عينيه :

ـ انها ملكي ! وبدا كأنه يأسف اذ لا يرى شيئا يضرب به . وتعالت اصوات بين النظارة محتجة تقول :

ـ لقد وضح الان انك لست مسيحيا . نعم لقد وضح !..

أما الطفل الصغير فلم يكن يعي ما حوله . أطلق صيحة مريعة وشق

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

لنفسه طريقا بين الجمع متجها نحو « الكديش » وجثا بالقرب منه وراح يعانق رأسه الميت المثخن بالجراح ويقبل عينيه وشفتيه وفجأة تغلب عليه الغضب فارتمى على مبكولكا مطبقا قبضتيه ، وفي تلك اللحظة أدركه أبوه الذي كان يحاول عبثا ايجاده بين الحشد والامساك به وصاح :

ـ لنذهب ، لنذهب ، لنعد الى البيت ..

كان الطفل يبكي وجسمه يهتز . شعر بان شيئا ما يقطع عليه تنفسه ويلجم لسانه فجهد حتى صاح من صدر كليم :

ـ أبي ! لم .. لم قتلوا هذا الحصان البريء المسكين ؟ فأجابه أبوه :

ـ انهم سكارى يا ولدي يتسلون . ثم هل يعنينا هذا ؟ تعال يا ولدي نرحل . وطوقه ابوه بذراعيه ، ولبث يعاني ثقلا شديدا على صدره .. كابوسا مريعا ، يحاول التخلص منه واسترداد انفاسه المبهورة . وبلغ من ضيق صدره ان كاد يختنق . فأطلق صيحة مدوية واستفاق ...

استفاق راسكولينكوف فوجد ان العرق يتصبب على جسده ، وقد ابتل به شعره . واستوى جالسا والرعب ماثل في عينيه وقال وهو يزحف نحو شجرة قريبة ليستند الى ساقها . كان يتنفس تنفسا عميقا . هتف :

« حمدا لله . انه ليس اكثر من حلم !.. ولكن ألا يجوز ان يكون هذا بداية حمى ؟ حلم مخيف »

كان يشعر ان جسمه محطم وان روحه تعيش في ظلام وخيبة . فأسند مرفقيه على ركبتيه وأخذ رأسه بين يديه وراح يفكر ويناجي نفسه على طريقته :

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

ـ رباه ! هل هذا يمكن ؟ هل أستطيع ان آخذ فأسا بيدي فأضرب به الرأس واجعل الدماغ يتناثر ؟ هل يمكن ان اسبح في الدماء الحارة اللزجة ؟ هل استطيع تحطيم القفل والسرقة ؟ سوف أرتعد ، سوف ارتعد وانا مغطى بالدم .. رباه ! بضربات فأس .. هل ذلك ممكن ؟

كان يرتعد كالورقة الجافة امام الريح العاتية وهو يحدث نفسه . عاد من جديد يستغرق في ذهوله المعهود ! ناجى نفسه قائلا :

ـ رباه ! ماذا حل بي ! كنت أعرف سلفا أنني لن احتمل ذلك ، والبارحة لما قمت بتلك التجربة . نعم البارحة فهمت تماما انني لن احتمل هذا ؛ فلم شككت في الامر حتى الان . والبارحة تماما وانا اهبط السلم قلت لنفسي ان ذلك مريع وقذر .. انه انحطاط .. رباه ! لم استطع النوم وهذه الفكرة وحدها تثير حفيظتي وتشل حركتي خوفا . كلا لن استطيع .. لن استطيع .. ولنفرض جدلا ان كل حساباتي وتخميناتي لا تترك مجالا للشك وان كل ما قررته خلال هذا الشهر واضح وضوح الشمس ؛ دقيق كعلم الحساب فانني ـ رباه ـ لن استطيع التصميم . كلا .. ابدا .. لن استطيع اتخاذ قرار نهائي . فكيف ؟ كيف انني حتى الان ..

وقف ذاهلا ونظر حوله دهشا لوجوده حيث كان ثم اتجه نحو الجسر « ث » .. شاحب الوجه ، ملتهب العينين . منحل الاطراف ، يهده التعب .. خيل اليه ان تنفسه كان اخف من المعتاد ، وشعر أنه تحرر من عبء ثقيل كان يسحقه زمنا طويلا وأن روحه انتعشت بعد طول غم ، فهتف ضارعا : « رباه ! هب لي من لدنك طريق الصواب حتى اقلع عن حلمي الملعون ... »

اجتاز الجسر ونظر بسكون وهدوء الى نهر « نيفا » وغروب الشمس يضفي عليه لون النار ، والشمس محمرة عند الافق . ثم

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

يشعر قط بضعفه رغم التعب الذي كان ينهكه حتى ليظن ان العلة التي كانت في قلبه تعكر صفو حياته قد برئت وشفيت . حرا .. حرا ، كان الان حرا .. لقد نجا من السحر ، من الاغراء ، من الآلام ... من الوسواس المرعب ، وغدا عندما يستعرض هذا الوقت بكل ما حصل فيه وما وقع له في هذه الايام دقيقة فدقيقة ، ثانية فثانية ، نقطة فنقطة سيحس في اعماقه احساسا خرافيا ممتعا ! وعلى الرغم من ان تلك الحال لم تكن شديدة الغرابة الا انه كان يجد فيها شيئا من نفسه وكأنه يكتشف ويتصور مقدراته ومصيره .

كان يجهل الاسباب التي تدفعه الى التجول في الشوارع متخذا طريقا مطولة للعودة الى غرفته وهو الذي كان على آخر رمق يسحقه التعب ، والالم . كان يستطيع اللجوء الى طريق اقصر تعيده بسرعة الى حيث يستريح ، ومع ذلك فهو يذهب الى حيث لم تكن تدعوه حاجة الى الذهاب ، عاد عن طريق « شارع العلف » دون أن يفسر لنفسه الاسباب . صحيح ؟.. لقد حصل له أن عاد الى غرفته مرات دون ان يعرف كيف وصل وأي سبيل سلك . نعم لقد وقع ذلك اكثر من عشر مرات ! أما لم وقعت تلك المقابلة الهامة الحاسمة وغير المنتظرة في ذلك المكان بالذات الذي لم يكن لديه من سبب يدعوه الى ارتياده ، وفي تلك اللحظة الحاسمة من حياته حيث ما كان يمكنه وهو على حاله تلك وفي ظروفه التي عاش فيها ان يتجنب التأثر بها واخضاع مصيره لها ، فذلك ما كان يتساءل عنه دائما ! واخيرا عده شركا هيأته الاقدار ليقع فيه :

كانت الساعة تشرف على العاشرة حينما اخترق السوق . وكان الباعة المتجولون واصحاب المخازن يغلقون دكاكينهم او يجمعون بضاعتهم المعروضة ويحزمونها ليعودوا بها الى دورهم وقد انقطع سيل الزبائن ، وهنا وهناك بالقرب من دكاكين الشواء ومداخل البؤر ، وفي

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

الساحات القذرة النتنة التي تحيط منازل « شارع العلف » كان الصعاليك والسوقة وحثالة المصانع يعجبهم المكان، وكان راسكولينكوف يميل الى هذه الامكنة والازقة المحيطة بها فيرددها لما يخرج تائها دونما هدف يقصده لانه ما كان يستهدف هنا لاي نوع من النقد المزري وهو فى تلك الاسمال البالية • كان يمكن ان يتنزه المرء هنا دونما خشية من فضيحة او زرية ! وعلى زاوية زقاق « لث » كان بائع وزوجه يبيعان ، منفصلين ، خيوطا ، واشرطة ، ومناديل قطنية ، و « خرداوات » كانا يستعدان لمغادرة المكان والعودة الى مكنهما ويتلكآن قليلا في الثرثرة مع شخص يعرفانه • اما ذلك الشخص فكان اليزابيت ايفانوفنا او بالاختصار اليزابيت كما كان يسميها الناس وهي الاخت الاصغر لاليونا ايفانوفنا تلك العجوز المرابية ارملة معاون في الكلية والتي كان راسكولينكوف قد رهن امس ساعته عندها حينما كان يقوم « بتجربته » • كان عارفا بوجود هذه ال « اليزابيت » منذ زمن بعيد وكانت هي بدورها تعرفه بعض الشيء • كان يعرف انها فتاة خرقاء خجول مرحة العقلية حمقاء بعض الشيء في الخامسة والثلاثين من عمرها تعاملها اختها الكبرى معاملة الرقيق • كانت تشتغل من اجلها ليلا نهارا وتضطرب تحت وطء نظراتها وتحتمل منها كل اهانة حتى الضرب • كانت تلك اللحظة تحمل ربطة في يدها وتقف مترددة امام البائع وزوجته تصغي اليهما بانتباه وهما يرويان لها امرا بحماس ظاهر • ولما شاهدها راسكولينكوف احس بشعور غامض يشبه الذهول يستحوز عليه رغم ان تلك المقابلة لم تكن تعني بالنسبة اليه شيئا مهما • وسمع البائع يقول متمما حديثه :

ــ لك ان تقرري يا اليزابيت ايفانوفنا فالامر منوط بك • عودي غدا في السابعة وسيكونوا جاهزين •

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

فأجابت اليزابيث ساهمة بصوت واهن وكأنها تحجم عن اتخاذ قرار : غدا ؟

فقالت زوجة البائع وهي امرأة عطوف في عينيها اشفاق :

ـ آه .. آه كم تخيفك العجوز اليونا ايفانوفنا ! لعمري ان المرء ليعتقدك طفلة اذا استمع اليك . رغم انها ليست اختك بالمعنى المفهوم. ان هي الا اخت بالعهد ومع ذلك انظري كيف تعاملك .

وقاطعها زوجها قائلا :

ـ نعم لمرة واحدة اغفلي عن اخبار اليونا ايفانوفنا . اتبعي نصحيتي: تعالي الينا دون ان تستأذنيها فالمسألة مهمة ولسوف تقتنع اختك بعدئذ بذلك .

ـ ومتى ينبغي ان احضر ؟

ـ حوالي الساعة السابعة غدا . ولسوف يأتون بدورهم ، ولسوف تحكمين بنفسك .

واضافت الزوجة : ـ ولسوف يقدمون لك الشاي ..

فأجابت اليزابيت دون ان تخرج عن شرودها :

ـ حسنا سأحضر ... ثم تأهبت للانصراف .

كان راسكولينكوف قد تجاوزهم في تلك اللحظة فلم يسمع من حديثهم اكثر مما سمع ... وقد تعمد ان يبطيء الخطى دون ان يشعرهم بذلك ساعيا الى سماع ما يستطيعه من تلك المحاورة . وكان الذهول الذي احس به في البداية قد انقلب تدريجيا الى رعب فقشعريرة باردة اكتسحت كيانه . لقد عرف شيئا عن طريق الصدفة المحضة ... شيئا هاما في « مشروعه » لقد عرف ان اليزابيت الاخت الوحيدة للعجوز المرابية ستكون غائبة عن المنزل ـ منزل اختها ـ غدا في الساعة السابعة ... أي ان العجوز ستكون وحيدة في تلك الساعة ..

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

كان يفصله عن غرفته عدد قليل من الخطى فلما دخل مسكنه كان كمن حكم عليه بالموت . لم يكن يستطيع المناقشة ولا البحث في شيء ولكنه شعر من صميم كيانه انه فقد من جديد حرية الفكر والارادة وانه فقدهما نهائيا .

لا شك انه اذا كان قد انتظر سنوات طويلة اللحظة الحاسمة لتحقيق « مشروعه » فذلك لانه لم يكن ليستطيع الاعتماد على مثل هذه الصدفة السعيدة التي عرضت له اليوم وفي تلك اللحظة بالذات . نعم لا شك انه ما كان يستطيع معرفة الوقت الذي تكون فيه العجوز منفردة دون ان يستقصي ذلك ويتحقق منه بطرح اسئلة خطيرة هنا وهناك فد تجعل المسؤولين يذكرونه عند التحقيق وهكذا فقد تقرر ان يكون غدا في ساعة معينة ، الموعد الذي تكون فيه عجوز معينة وحيدة في دارها وان يكون هناك فتى يقصد اغتيالها . نعم كان ذلك مقررا من الإزل .

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

٦

كان مقدرا ان يلم راسكولنيكوف بالسبب الذي دعا البائع وزوجه الى دعوة اليزابيت ، ان يعرف انه بسيط عادي . فقد كانت هناك عائلة كريمة اخنى عليها الدهر تريد بيع حاجات من البسة واثواب نسائية ، ولما كانت تلك العائلة تخجل من عرض تلك الحاجات في السوق فقد راحت تبحث عن مشترية . وكانت اليزابيت تهتم بمثل هذه الامور ولها زبائن كثر لانها كانت معروفة بنزاهتها واسعارها المعقولة وعزوفها عن المساومة . كانت قليلة الكلام كثيرة اللطف رقيقة المعشر شديدة الحذر .

غدا راسكولينكوف في ايامه تلك خياليا متطيرا وقد جنف ذلك التطير في نفسه آثارا لا تمحى حتى انه كان يميل الى الاعتقاد ـ وهو في صدد هذه القضية ـ ان هناك تسابقا غريبا وغامضا في الاحداث ، تسابقا شاذا ترافقه سلسلة من المؤثرات والمصادفات : ففي الشتاء السابق كان احد اصدقائه الطلاب المدعو « بوكوريف » ذاهبا الى « خاركوف » فأعطاه عنوان آليونا ايفانوفنا في سياق حديث عابر . واعلمه انه يستطيع ان يجد لديها ما يقترضه اذا دعته الحاجة وكان لديه رهينة يقدمها .

ومضت ايام طويلة قبل ان يتذكر راسكولينكوف ذلك العنوان ، لانه كان يعطي دروسا مأجورة بتخلص بريعها من ضائقاته المالية . فلما تزايدت متطلباته لم يكن لديه الا حاجتان تصلحان لتكونا رهنا ترتضيه العجوز : الساعة القديمة المصنوعة من الفضة التي ورثها عن ابيه والخاتم الذهبي المزين بثلاثة احجار حمراء كانت اخته قد اعطته له على سبيل الذكرى لما ان افترقا اول مرة . فقرر ان يضحي بالخاتم بادىء ذي بدء فيقدمه للمرابية . ولما ذهب اليها شعر نحوها بكراهية عميقة قبل ان يعرف عنها شيئا . ولما اعطته « الورقتين

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

النقديتين » عرج في طريق عودته الى البيت على حانة موبوءة وطلب لنفسه قدحا من الشاي ثم جلس يفكر . فنبتت في رأسه فكرة عربية ما لبثت ان سيطرت على تفكيره .

كان الى مائدة قريبة منه طالب لا يذكر انه رآه او عرفه من قبل. وكان الطالب يجلس مع ضابط يحتسيان الشاي بعد ان فرغا من شوط « بليار » . سمع راسكولينكوف الطالب يحدث الضابط عن مرابية عجوز ، ارملة مساعد في الكلية ، اسمها آليونا ايفانوفنا ويعطيه عنوانها فكان ذلك في حد ذاته نوعا من الغرابة في نظره . فهو قد وصل توا من لدنها وها انهم هنا يتحدثون عنها ! انها الصدفة ولا شك ولكنه وقع تحت تأثير شعور معين ! وكأن الطالب اراد دعم ذلك الشعور وتنميته في نفسه . فراح يروي تفاصيل دقيقة كثيرة تتعلق بتلك الـ « اليونا ايفانوفنا » . كان يقول :

ـ انها مدهشة ... يمكن للمرء ان يجد لديها دائما ما يقترضه ... فهي غنيه كأحد اليهود تستطيع اقراض خمسة الاف روبل دفعة واحدة ولا تتنازل عن روبل واحد تقرضه لقاء رهن . ولقد غمرت عددا كبيرا من اصدقائي بحسن صنيعها غير انهـا عنيدة قاسية كالجمل !

وهكذا راح يقص على زميله ما يعرفه من صفات للمرأة فقرر انها خبيثة جشعة وان تأخر يوم واحد عن اجل الدفع المسنوح من قبلها، يكفي لضياع الرهينة التي في يدها ، وانها تعطي ربع قيمة الشيء المرهون وتستوفي فائدة تتراوح بين خمسة وسبعة في المائة عن الشهر الواحد . ولم يغفل ذلك الطالب اية معلومات عن المرابية : فذكر في سياق حديثه ان لها اختا تدعى اليزابيت وانها صغيرة نسبيا ومستكينة لدرجة ان العجوز تضربها لأتفه الاسباب وتسيطر عليها سيطرة تامة

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

رغم ان طول هذه الـ « اليزابيت » لا ينقص عن ستة اقدام ، وهذا وجه الغرابة في الموضوع كما كان يقول !

وهنا انتقل موضوع الحديث وتركز حول اخبار اليزابيت فكان الطالب يتحدث عنها بغبطة ملحوظة دون ان يكف عن الضحك حتى ان الضابط الذي استمع اليه حتى تلك اللحظة بشغف واهتمام ، رجاه ان يبعث بتلك الـ « اليزابيت » اليه لتفسل له ثيابه الداخلية . لم تفت راسكولنيكوف كلمة واحدة من ذلك الحديث . حتى انه تأكد من احاطته علما بكل ما يتعلق بتلك العجوز دفعة واحدة : فاليزابيت هي الاخت الصغرى ولكن من ام اخرى . ولها من العمر خمسة وثلاثون عاما تعمل ليل نهار لحساب اختها وتشغل في بيتها مركز الطاهية والغسالة الى جانب اشغال الحياكة التي كانت تقوم بها كلما سمح لها الوقت ، وانها كانت ترهق نفسها بالعمل والخدمة وتعطي اختها كل ربحها دون ان تجرأ على نقبل عمل ما او عقد صفقة ما الا باذن العجوز وموافقتها . وكانت المرابية قد كتبت وصيتها التي حرمت فيها اليزابيت من كل شيء باستثناء بعض الاثاث . ولم تكن اليزابيت تجهل ذلك . كانت تعرف ان اختها العجوز قد وهبت ديرا في مقاطعة «س ....» كل مالها ، التماسا لراحة روحها عند الموت .

لم تكن اليزابيت تمت الى بيئة راقية رغم انحدارها من اسرة عاشت في المدينة . كانت طويلة القامة ، هزيلة التكوين ذات قدمين كبيرتين ملتويتين ، تنقل دائما احذية مشوهة ، وتميل الى النظافة المفرطة . وكان ما يزيد في دهشة الطالب واستغرابه ان اليزابيت تلك كانت دائما حبلى . حتى ان الضابط لم يتمالك ان قال معقبا :

ـ انك هنا تعطي صورة لوحش مخيف .

ـ يجوز ... انها نحاسية اللون وكأنها جندي في لباس امرأة.

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

ولكن لا يمكن ان تنحدر الى مرتبة الوحش . ان لها سماتا غايـة في الطيبة وعينين جميلتين . وهي هادئة ووديعة ترتضي كـل شيء حتى يمكن القول ان ابتسامتها جذابة ..

فقال الضابط متسائلا وهو يضحك :

ـ هل يمكن ان تروق لك ؟

ـ لمجرد غرابتها فقط . اما تلك العجوز اللعينة : فأقسم انني مـا كنت لاشعر باي تبكيت في ضميري لو قتلتها وسلبتها مالها ...

ضحك الضابط لقول صديقه . غير ان راسكولنيكوف ارتعد له : لقد كان غريبا ان يسمع ذلك . غريبا ان يسمع فكرته علـى لسان غيره !

قال الطالب بحماس مخاطبا زميله :

ـ سوف اطرح عليك سؤالا جديا لو سمحت وبالطبع انني اقول ذلك على سبيل المزاح فحسب . قارن بين عجوز خرقاء حمقاء خبيثـة غليظة الفؤاد مريضة غير ذات فائدة لاحد ، لا تعرف من حياتها لـم تعيش ، وستموت غدا ميتة طبيعية .. هل تفهم ، هل تفهم ؟

فقاطعه الضابط قائلا بعد ان اصغى اليه باهتمام وراقبـه بنظرة منفعلـة :

لا شك انني افهم .

واسترسل الطالب يقول :

ـ نعم قارن بين عجوز كالتي وصفتها وبين قوى فتية نشيطـة تضيع هباء لافتقارها الى السند والدعم ، قوى تضيـع بالالوف وفي كل مكان ... مئات بل الوف من الاعمال الممتازة والمشاريـع التي يمكن تحقيقها وتنفيذها باموال تلك العجوز الموهوبة لدير ... مئات بل ألوف من المخلوقات يمكن تسييرها في الطريق القويمة وعشرات

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

من الاسر يمكن انقاذها من المجاعه والانحلال والدمـــار والتفكـك وتجنيبها مستشفيات الامراض السارية بتلك الاموال . فلتقتـل اذاً وليؤخذ مالها وليكرس بعدئذ لنفع الانسانية . فهل تعتقد ان جريمة تافهةكهذه لا تساوي ألوف الحسنات التي تقابلها . فكر ان حياة واحد تنقذ ألوفا من الدمار والانحلال والفساد ... مئات من الارواح تنقذ لقاء روح تزهق . الا ترى في ذلك عملية حسابية واضحة ؟ ثم ما وزن حياة عجوز خبيثة كهذه في الميزان العام ... عجـوز سخيفة بليـدة معلولة ؟ انها لا تساوي ذرة بل جرثوما بل واقول ان حياتها ابخس من ذلك ثمنا . لان هذه العجوز ضارة بالانسانية . انهـا تبتز وتحتكـر المستقبل بثمن الحاضر ، انها وحش ضار ... اتدري انهـــا مؤخرا عضت اصبع اليزابيت في ساعة غضبها فكادت ان تقطعه لولا قليل ؟

فقال الضابط :

ـ لا شك انها غير جديرة بالحياة . ولكن هي الطبيعة !

ـ آه ... آه يا صديقي . الطبيعة ؟ الطبيعة ؟ يمكن تبديلهـا وتسييرها والا اوشكنا على الغرق في خضم من المعتقدات الفاسدة . لو تركنا الطبيعة وشأنها لما لمع رجل كبير . يقولـون : « الواجب ! الضمير » وأنا لا اعارض ولا استنكر الواجب والضمير لكنني اطلب بل اطالب بايضاح معنى هذه الكلمات ! حـتـا . سأطرح عليـــك سؤالا آخر :

ـ كلا ! بل دع لي انا فرصة السؤال :

ـ انت الآن في الدفاع كلامي كالخطيب المفوه ولكن قل لي هل تتعهد بقتل هذه العجوز « بنفسك » ؟

ـ بالطبع لا . انني اتحدث من وجهـة نظر العدالـة وذلـــك لا يعني انني اقصد نفسي بالذات في هذه اللحظة .

ـ حسنا . اذا اردت رأيي قلت لك انه طالما لا تحزم امرك علـى

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

تنفيذ ما تقول فلا يمكن ان تتعلق المسألة بالعدالة .. هيا نلعب شوطا آخر ...

كان راسكولنيكوف فريسة اضطراب عنيف لان تلك النظريات لم تكن غريبة عنه . انها نظريات وآراء شباب سمعها غالبا ، وهم يتداولونها على اشكال مختلفة وبصدد مواضيع مختلفة . ولكن لم جمعت الصدفة تلك الاراء وادخرتها حتى تلك اللحظة ليسمعها راسكولنيكوف؟ او على الاصح كيف انتقلت افكاره بحذافيرها الى رأس سواه في اللحظة التي نبتت فيها في راسه وراحت تزدهر ؟ كيف يفكر هو في العجوز ثم لا يلبث حتى يسمع حديثا يدور حولها ؟ انها صدفة غريبة . وقد لبث ذلك الحديث الذي دار في تلك الحانة يؤثر تأثيرا كبيرا على الاحداث التي وقعت بعد ذلك حتى انه ليقال ان هناك علاقة او ارتباطا او تقريرا يصدر عن القدر ..

* * *

عندما عاد راسكولنيكوف من « سوق العلف » استلقى على « سريره » ولبث ساعة لا يريم ولا يتحرك . وكان الظلام قد ارخى سدوله في ذلك الحين ولم يكن لديه شمعة يوقدها بل ان فكرة ايقادها ـ لو وجدت ـ لم تكن لتخطر على باله . لم يذكر ابدا خلال المدة الاخيرة انه استطاع التفكير في شيء ... واخيرا عادت اليه قشعريرة الحمى التي شعر بها مؤخرا فوجد ان خير ما يفعله هو النوم. فاغمض عينيه واستغرق في نوم عميق .

نام اكثر من عادته ولم يتخلل نومه احلام ، حتى ان ناستاسيا التي دخلت غرفته في العاشرة صباحا وجدت صعوبة في ايقاظه . كانت تحمل اليه الشاي والخبز . الشاي الذي كانت قدمته له من قبل في

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

انائهـيـا الخاص .

هتفت باختـقـار :

ـــ رباه كم ينام انه لا يحسن الا النوم .

نهض باجهاد وهو يشعر بألم في رأسه ، فراح يتمشى في غرفته ثم لم يلبث ان سقط على السرير من جديد . صاحت ناستاسيا :

ـــ اتعاود النوم ؟ هل انت مريض ؟..

ولما لم يجب ، اردفت :

ـــ الاتريد ان تحتسي قدحا من الشاي ؟

فأجابها بضعف وهو يغمض عينيه ويستقبل الجدار بوجهه : ـــ فيما بعـــد ..

انحنت ناستاسيا فوقه وهي تقول :

ـــ لعمري قد يكون مريضا ... ثم دارت على عقبيها وخرجت ، ولم تعد اليه الا في الساعة الثانية وكانت تحمل الحساء . كان لا يزال نائما كما تركته والشاي لم يمس ، فراحت تهزه بغضب وتقول :

ـــ ما بك لا تنفك تنام ؟ هل انت مريض ؟ اجب بنعم او لا !

لكنها لم تتلق جوابا كذلك . فنظرت اليه باستنكار وقالت :

ـــ من الخير لك ان تقوم بجولة في الشارع ، قد يفيدك الهواء الطلق ... ماذا لو جلست قليلا !

جلس الشاب في « سريره » واطرق برأسه محدقا [illegible] في خواطره . ولم يرد على قوله : فيما بعـــد ... ارتحلي .. واشار بيده نحو الباب . فوقفت برهة تتأمله بنظرة اشفاق ثم خرجت .

لبث متطرقا بضع دقائق ثم رفع رأسه ونظر باستغراق الى الشاي والحساء واخيرا انتزع قطعة من الخبز وامسك بالملعقة وبدأ يأكل... ابتلع لقيمات دون شهية وبشكل آلي . فسكن الالم في رأسه ولمـــا

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

انتهى من طعامه تمدد على « السرير » ولكنه لم ينم . بل لبث ساكنا مستلقيا على صدره دافنا وجهه في « الوسادة » . كان يفكر ويفكر وكانت احلامه غريبة . كان يتصور نفسه هناك في افريقيا . في مصر بالقرب من بعض الواحات . ويرى ان القافلة تستريح والجمال تنام هانئة ، واشجار البلح نامية على شكل دائرة محيطة . وكان الجميع يتناولون الطعام اما هو فكان يشرب من غدير جار مزمجر قريب من هناك . ولقد شعر ان ذلك الماء انعشه ... انه ماء ازرق صاف بسيل فوق حصى ملونة وفي مجرى من الرمال التي تعكس اشعاعا ذهبيا .

وفجأة سمع دقات ساعة بوضوح فانتفض ورفع رأسه ونظر من النافذه وبعد ان خمن الوقت غادر « سريره » كما لو انتزعته ايد خفية. شعر باشراق عقلي فسار متلصلصا نحو الباب يواريه بهدوء ويصغي . فلم يسمع اية ضجة على السلم كما لو ان كل من في البيت كانوا نياما. راح يعتب على نفسه استغراقه في النوم كل هذا الوقت دون ان يتخذ العدة لما هو في سبيله . واعتبر هذا الاهمال منه عملا شنيعا شاذا . فقد ادركه الوقت والساعة اشرفت على السادسة ، وهنا شعر بوجيب قلبه يتجاوب في الحجرة ، واستولت عليه عجلة خارقة صاخبة مضطربة طردت الذهول والنعاس اللذين كانا مستوليين عليه . كانت الاستعدادات اللازمة بسيطة غير معقدة . فاستجد بكل قواه ليدبر الامر ويبلغ به مبلغ الكمال فلا ينسى شيئا ولا يغفل امرا وشعر بضربات قلبه تكاد تخنقه فصمد وقاوم واخرج من « وسادته » رزمة من الثياب انتقى منها قميصا قذرا خلقا نزع منه « سريدة » بعرض بوصة واحدة وطول ثمانية بوصات اراد ان يصنع منها عقدة سيالة « انشوطة » يثبتها في معطفه ، الامر الذي لن يستغرق منه الا دقائق معدودات . نزع معطفه الصيفي الواسع المصنوع من قماش قطني متين (وهو اللباس الخارجي الوحيد الذي كان بملكه) ، وبدأ يخيط في داخله

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

تحت الابط طرفي « السريدتين » . كانت يداه ترتعدان خلال تلك العملية ولكنه انجزها بدقة لا تفضحها العين ، ثم ارتدى المعطف ...

كان قد هيأ الابرة منذ زمن بعيد وكذلك الخيط كان محتفظا به في قمطر المائدة ملفوفا في ورقة باعتناء . اما « الانشوطة » فكانت من تصميمه : ادخرها لنفاس اذ انه يستحيل عليه الخروج الى الشارع والقأس في يده ، اما اخفاؤها تحت المعطف فيستوجب استعمال اليد او الذراع لتثبيتها . ولكن بمثل هذه « الانشوطة » ليس عليه الا ان يدخل الجزء الاعلى منها فيها ويتركها متدلية دون ان يخشى سقوطها ؟ وستبقى تحت ابطه طيلة الرحلة ولن يقتضيه الامر الا ادخال يده اليسرى في جيب معطفه والامساك بالمقبض ليمنعها من التأرجح . ولما كان معطفه عريضا حتى لكأنه غرارة كبيرة ، فان الناظر اليه لن يستطيع ان يحدس انه يسند بيده شيئا . وهكذا نبتت فكرة « الانشوطة » في رأسه منذ نيف وخمسة عشر يوما ..

أنهى عمليته ومد يده الى الفراغ الواقع بين « الديوان » وحافة الجدار من الجهة اليسرى وعبث برهة بأصابعه باحثا ثم اخرج « الرهبنة » التي ادخرها لهذه المناسبة .لم تكن شيئا ثمينا بالمعنى المفهوم . كانت عبارة عن قطعتين من الخشب المجلو المصنوع على شكل علبة السجائر وقد غطاهما بقطعة من الحديد الابيض (تنك) عثر عليها خلال احدى نزهاته ، ثم لفهما بعناية في رقة بيضاء ناصعة نظيفة جدا الصقها من اطرافها حتى ليتعذر نزعها بسهولة . كان قصده من ذلك لفت انتباه العجوز وقتا كافيا وآشغالها زمنا بنزع الغلاف بانتظار اللحظة الحاسمة . وقد عمد الى قطعة الحديد ليزيد في وزن العلبة الموهومة حتى لا تدرك العجوز خدعته للوهلة الاولى ... وهي خطة مدروسة بعناية ومعدة بحذق .

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

سمع فجأة صوتا من ساحة الدار يهتف .

ـ لقد اعلنت الساعة السادسة منذ طويل ... فكان لهذا القول رد فعل عنيف في نفسه : « السادسة منذ زمن طويل ؟ رباه ! »

اندفع نحو الباب واصاخ السمع ثم اخذ قبعته ونزل الدرجات الثلاثين بحذر القط وحرصه ونوقف برهة : عليه تنفيذ الجزء الاهم من تلك الاستعدادات : سرقة الفأس من المطبخ .

اما لم استعمال الفأس بالذات ؟ فذلك ما لا يعرفه ! لان الفكرة واتته من قبل فتبناها وتقبلها دون نقاش ...

يجدر ابراز نقطة هامة في قرار راسكولينكوف : ذلك انه كلما اتخذت خطته صبغة نهائية كلما ازدادت في عينه رهبة ووحشية لدرجة ان الصراع الاليم الذي كان ينشب في اعماقه كلما ناقش تلك الفكرة كان يجعله ابعد ما يكون عن تنفيذ عزمه . حتى انه في تلك اللحظة ، رغم جمعه كل ما يلزم لتلك « العملية » وتدقيقه في كل التفاصيل حتى التافه منها، كان لا يزال يعتقد انما سيقدم عليه ضرب من المستحيل... نوع من الاغراق في الوحشية . مع ذلك كان يشعر ان التراجع متعذر في تلك اللحظة !

لم يكن الحصول على الفأس يقلق باله من قبل نظرا لسهولته : فناستاسيا : غالبا ما تكون غائبة عن البيت مساء لانها تزور الجيران حينا او تكون في السوق احيانا تاركة باب المطبخ مفتوحا ... ذلك الباب الذي كان عللة قلق راسكولينكوف وخوفه كلما اراد التسلل من البيت . فلم يكن اسهل عليه من ان يتسلل الى المطبخ بهدوء فيأخذ الفأس ليعيدها بعد ساعة على الاكثر عندما يكون كل شيء قد انتهى. بيد انه كان يخشى بعض الثغرات في هذه الخطة كأن ترجع ناستاسيا قبل الوقت فيتعذر عليه اعادة الفأس ويضطر للانتظار حتى تسنح

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

فرصة اخرى ، يجوز ان تكتشف خلالها ضياع الفأس فتبحث عنهـــا صارخة مزمجرة وبذلك يتولد الشك او على الاقل يسبب نمو الشك. لكن الوقت ما كان يسمح له بالتريث امام هذه العقبة التافهـة ، لان تفكيره كان منصرفا الى الناحية الاهم من الموضوع تاركا توافـــه التفصيل الى ما بعد عندما يكون قد انتهى من عمله .

رغم هذا فانه ظل يشعر باستحالة تنفيذ « العمل » . تذكر على سبيل المثال حاله مساء البارحة ــ لما ان اقنع نفسه بوجـوب اجراء تجربة تقتصر على زيارة المكان دون ان يرافقها اي عمل ــ وكيف ثارت خواطره واضطربت افكاره وتخاذلت ساقاه رغم ما كان يقنع به نفسه من اقوال ومن ان لا ضير من اجراء التجربة طالما انها تتعلق بحلـــم وليس بحقيقة . بيد انه حلل النتيجة الادبية لتلك المسألة تحليـــلا دقيقا فكان تفسيره وافتاؤه من الدقة وحسن السبك لدرجة لم يشعر معها في وجدانه بأي اعتراض . لم يكن يريد التساهل مع نفسه في هذا الموضوع بل كان يبحث بعناد عن اعتراضات وانتقادات تـفـــه قراره . لكن نهار امس الغني بحوادثه المفاجئة الحاسمة سرى بنفسه آليا فكان كمن يقسر على اتباع الطريق ترغمه قوة قاهرة لا قبل لـه بمقاومتها ... كمن اطبقت على ثوبه عجلة جبـــارة وراحت تـدور وتجذبه اليها بشدة وتصميم .

فكر من قبل ــ قبل ان يضع خطته ــ في الاسباب التي تجعـل كل جريمة سريعة الاكتشاف ، وفي الدوافع التي تتيح للمحققيـــن العثور بسهولة على آثار تدين القتلة وخرج بنتائج مثيرة : كان السبب الرئيسي ــ على رأيه ــ هو الاستحالة الطبيعية لاخفاء الجريمـة في صدر المجرم نفسه . لان المجرمين من اي نوع كانوا يشعرون عنـد تنفيذ جريمتهم وبعدها بقليل ، بضعف في ارادتهم وفي احكامهـم ،

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

وكان راسكولينكوف مؤمنا بان ذلك الخور يتحوذ على الانسان كما يتسلط عليه المرض وينمو فيه باطراد حتى انه يبلغ الذروة قبل الاقدام على تنفيذ الجريمة بقليل : ويظل على هذه الحال اثناء ارتكابها ويبقى اثره زمنا ما بعد ذلك بحسب الاشخاص ودرجة مقاومتهم ثم لا يلبث ان يزول شأن كل الامراض • بقي ان يعلم هل المرض يرافق الجريمة أبدا أم ان الجريمة ذاتها هي بحسب طبيعتها ممتزجة بنوع من المرض ••• ذلك ما لم يتوصل الى حله حتى تلك اللحظة !

ظن راسكولينكوف ــ حينما بلغ من تحليله هذا الحد ــ ان أمره سيختلف بعض الشيء عما استنتج وان مثل ذلك الانقلاب الروحي لن يحدث في نفسه • وظن ان قواه الفكرية وارادته لن تتخليا عنه خلال مراحل « مشروعه » لسبب بسيط : هو ان ما هو بسبيله (ليس جريمة) • وليس لنا ان نفسر الاسباب التي اوصلته الى هذه النظرية الاخلاقية ، لكننا نكتفي بالقول ان الصعوبات العملية ذات الصبغة المادية البحتة ما كانت تلعب في ذهنه الا دورا ثانويا • كان يقنع نفسه بقوله : « ــ يكفي ان اراقب ارادتي ووجداني واسيطر عليهما حتى اتغلب في اللحظة الحاسمة على الصعوبات التي قد تعترض مشروعي » •

لكن اللحظة الحاسمة كانت تتأخر باستمرار حتى بات يشك في المبادىء التي اوجدها والاستنتاجات التي استخلصها من مناقشاته • والان بعد ان حان الوقت فان الحوادث اتخذت صبغة جديدة غير منتظرة ، واول عقبة صادفته كانت عندما بلغ نهاية السلم قرب الباب الذي كان ابدا مفتوحا اذ انه بينما كان يلقي عليه نظرة جانبية ليتأكد من غياب ناستاسيا وصاحبة الدار او على الاقل غياب الاولى ووجود الثانية في غرفة مغلقة داخل الشقة ، ليتسنى له اخذ الفأس دون ان

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

يراه احد ، رأى لدهشته البالغة ، أن ناستاسيا كانت هناك مشغولة بنشر بياضات على الحبال فاستمر في سيره وكأنه لم يرها . لكنها ابصرت به بل انها راحت تتابعه بنظرها حتى تجاوز نطاق الرؤية المتاح لها في مكانها وهكذا اخفق في اهم جزء من خطته . وراح يعتب على نفسه وقد عصفت بين جوانحه غضبة حيوانية ويقول :

ـ « من اين جئت بتلك الفكرة السخيفة ، فكرة غياب ناستاسيا عن المطبخ في اللحظة الحاسمة ولم ، لم اعتبرتها امرا واقعا رغم ما يعتورها من اخطاء سخيفة ؟ »

وقف امام الباب الخارجي للبناء تتنازعه عوامل شتى : فهو لا يستطيع الخروج الى الشارع هكذا دون هدف لان في ذلك ايلاما له ، ولا يريد العودة الى غرفته فالايلام اشد ! راح يدمدم حانقا : « لقد اضعت فرصة جوهرية واضعتها الى الابد ! » وفجأة التمعت عيناه ببريق خاطف وارتعش كيانه فرحا : شاهد في غرفة حارس البناء شيئا يلتمع ، شيئا عرف فيه خالته التي اخفق في الحصول عليها من المطبخ : فأسا كامنة بين قطعتين من الخشب ، تحت مقعد الحارس ! ولما كان الباب مفتوحا فقد حدس ان يكون الحارس خارج الغرفة غير بعيد عنها ... لم ينتظر اكثر من ذلك واقترب من الكوخ وهو ينادي بصوت مختنق حتى اذا تأكد من غيابه دخل الكوخ وانتزع الفأس فأودعها المكان الذي اعده لها تحت معطفه وخرج دون ان يراه احد .

قال يحدث نفسه : الحقيقة ان الشيطان يتدخل عندما يخفق الذكاء ... وارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة : لقد خدمه الحظ وشجعته تلك الخدمة ايما تشجيع .

سار في الشارع ببطء خشية ايقاظ الشكوك وجهد في ان

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

يتحاشى النظر الى الوجوه زيادة في الحيطة والحذر • تذكر فجأة قبعته الشاذة فهتف غاضبا : « رباه ! كيف فاتني استبدالها بما كنت املكه من نقود البارحة ؟ » وافلتت شفتاه سبة بذيئة • وبينما هو في طريقه لمح ساعة جدار في دكان مر بالقرب منها فاذا بها تشير الى السابعة وعشر دقائق فكان ينبغي اذاً ان يحث الخطى خصوصا وانه معتزم بلوغ المكان من الطريق الجانبية • والغريب انه في المرات السابقة ، مرات التجربه ، كان يشعر برعب واضطراب • اما الآن فلم يكن يحس بشيء من ذلك بل ويمكن القول ان شعوراً بالارتياح كان يغمره • كانت افكاره متجهة وجهات لا علاقة لها بما بصدده • كان يقول وهو يسير بالقرب من حديقة « يوسوبوف » انه من المستحسن لو عمد الى اقامة نوافير كثيرة لتلطف الجو في مثل هذه الامكنة العامة ، ثم لاحظ انه لو عمد الى توسيع « البستان الصيفي » حتى « ساحة مارس » ودمج في حديقة « باليه ميشيل » فان ذلك سيكون تجديدا جميلا نافعا « لسان بترسبورغ » وهنا اثار انتباهه سؤال عرض له فجأة : لم يفضل الناس في المدن الكبيرة ــ سواء بدافع الحاجة او بدافع الذوق ــ السكنى في الاحياء التي لا تتخللها نوافير ولا حدائق والتي ليس فيها الا الوحل والعفن والروائح القذرة ؟ وتذكر نزهته في « شارع العلف » والاسباب التي دفعته اليها فلم يتمالك ان تمتم : « يا لي من احمق ! يجدر بي ان لا افكر في هذا •• اعتقد ان اولئك الذين يساقون الى ساحة النطع يسمعون لاخر مرة بالمناظر التي تحيط بهم وهم في طريقهم الى الموت » •

ومضت هذه الفكرة في رأسه برهة لكنه سرعان ما اطفأها اذ كان قد بلغ الدار التي يقصدها واصبح الباب قبالته • تناهى الى سمعه صوت ساعة بعيدة تدق دقة واحدة فهمهم : « هل يمكن ان تكون النصف بعد السابعة ؟ مستحيل ان هذه الساعة مغلوطة » •

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

خدمه الحظ مرة اخرى عندما هم باجتياز عتبة المكان حتى ليظن ان القضية جاءت عمدا • فقد مرت في تلك اللحظة عربة كبيرة محملة بالقش راحت تجتاز المدخل الرئيسي للدار وبذلك حجبت دخوله فلم يشعر به احد حتى ان العربة لم تكد تبلغ الباحة الا وكان قد بلغ السلم الايمن وارتقاه • وتناهت الى سمعه اصوات مزمجرة آتية من جانب العربة • وفتحت نوافذ كثيرة مطلة على الباحة غير ان الابواب المطلة على السلالم لبثت مغلقة •

راح يصعد قاصدا الطبقة الرابعة حيث تقيم العجوز وقد وضع يده على قلبه ليمنعه من الوثوب • وتحسس الفأس التي الى جانبه واطمأن الى وجودها للمرة الاخيرة ••• سره خلو المكان في تلك اللحظة ••• صحيح ان في الطبقة الثانية مسكنا غير مأهول واف بعض العمال يقومون باصلاحات فيه ، غير ان ذلك لم يثبط من عزيمته • تجاوزهم دون ان ينظر اليه احد وراح يحدث نفسه قائلا : « لا شك انه كان من الاصلح عدم وجودهم ولكن لا بأس على كل حال فهناك طبقتان اخريان » •

بلغ الطبقة الرابعة ووقف امام الباب ونظر الى المسكن الخالي المقابل لمسكن العجوز • تذكر ان في الطابق الثالث مسكنا يقوم ولا شك تحت مسكنها مباشرة وهو خال بالمثل وراودته فكرة عابرة لحظة واحدة : « اوليس من الخير ان اعود ؟ » غير انه لم ينتظر الجواب بل راح يسترق السمع الى لصق باب العجوز فلم يسمع حركة • كان السكون يخيم على السلالم بالمثل فألقى نظرة اخيرة حوله وتأهب مستعدا وهو يرفع من جديد مقبض الفأس تحت معطفه ويتساءل : « أو لست شاحبا بعض الشيء ؟ ان العجوز حذرة جدا فهلا يجدر بي أن اتريث برهة ريثما استرد روعي ؟ » •

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

لكن ضربات قلبه لم تخف ، بل على العكس كانت تزداد باطراد فلم يأبه لها وامسك بحبل الجرس فجذبه ثم عاد يقرعه بعد نصف دقيقة بأشد من المرة السابقة دون ان يتلقى جوابا ! شعر ان لا فائدة من القرع بالحاح لانها ستثير ريبة العجوز بدلا من ان توحي اليها الاطمئنان ... ولا شك انها في الداخل وحيدة كما يعرف سلفا وهذا هو سبب التلكؤ الذي يبدو عليها ... نعم ... لقد كان يعرف بعضا من عادات آليونا ايفانوفنا ..

اصغى من جديد الى الباب فسمع فجأة احتكاك يد على مزلاج الباب من الداخل وحفيفا خافتا كالذي يتخلف عن مرور شخص قرب الجدار .. وسواء اكتسبت حواسه ارها خاصا ام ان الحركة كانت واضحه مسموعة ، فانه لم يتمالك ان ارتعد وهو يفكر ان وراء هذا الباب يقف شخص ينصت مثله الى ما قد يدور في الممشى ... ولعله مثله ، قد الصق اذنه على الباب ... فراح يتحرك في مكانه مثيرا ضجة معقولة ليجنب الشخص المترقب وراء الباب كل خوف وحذر ، ثم عاد يقرع للمرة الثالثة بهدوء دون ان تظهر عليه بوادر نفاذ الصبر ... وظلت هذه اللحظة ماثلة في خاطره ، حتى انه لبث يذكرها امدا طويلا .. ادهشه الاستعداد الذي ابداه والحيل التي تذرع بها على الرغم من انه ــ خلال فترات متقطعة ــ كان يشعر بانعدام الاحساس وكأنه بارح جسده .

وفجأة ، سمع صوت المزلاج وهو يرفع ...

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

٧

وورب الباب بهدوء كالمرات السابقة وبدت العينان الحادتان الحذرتان تلتمعان وسط الظلام. وفي تلك اللحظة فقد راسكولنيكوف هدوءه وكاد ان يفسد خطته كلها بالخطيئة التي ارتكبها: ذلك انه خشي ان يدفع الحذر بالعجوز الى اغلاق الباب في وجهه، ولم يلاحظ ان وجهها كان يعكس احساسها بالاطمئنان، فأمسك الباب وجذبه نحوه بشدة حتى ان العجوز التي كانت تمسك به بحذر وعنف معا اندفعت معه الى الممشى. ولما رأى انها تتصدى له لتمنعه من الدخول تقدم نحوها وفي عينيه نظرة وحشية اخافت العجوز، فتراجعت خطوة الى الوراء وارادت ان تقول شيئا غير ان لسانها لم يسعفها بالنطق.

ابتدرها بلهجة سعى ان يجعلها طبيعية:

ـ مساء الخير يا اليونا ايفانوفنا ... لقد جئتك بالرهينة التي وعدتك بها ... ولكن لنمض الى هناك حيث النور ... وراح يدفعها امامه بعنف وهو يدخل الغرفة دون ان تدعوه الى الدخول. وعادت العجوز تقف في سبيله وقد استعادت القدرة على النطق وصاحت:

ـ يا الهي! ماذا تريد؟ ومن انت؟ ماذا تبغي؟

فمد لها راسكو لنيكوف يده بالعلبة الوهمية وقال:

ـ هيا يا أليونا ايفانوفنا. أنا من معارفك القدماء انا راسكولنيكوف، وهذه هي الرهينة التي حدثتك عنها مؤخرا.

تناولت العجوز العلبة ومضت تتفحصها ثم لم تلبث ان عادت تنتصب امامه وتنظر في عينيه محدقة ... كانت تتأمله باتنباه وريبة وقد مضت دقيقة خيل لراسكولنيكوف خلالها ان عيني العجوز تلتمع

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

بسخرية مرة كما لو انها خمنت كل شيء ، فشعر بضعف شامل وبنوع من الخوف حتى ان تحديق العجوز لو استمر نصف دقيقة اخرى للاذ بأذيال الفرار .

بذل مجهودا جبارا للتغلب على ضعفه وقال بلهجة خبيثة :

ـ ماذا دهاك حتى تنظري الي بهذا الشكل ؟ الا تعرفينني ؟ هذه العلبة التي حدثتك عنها فاما ان تأخذيها واما ان تعيديها الي لأتصل بأناس آخرين .

فاه بتلك العبارات عفويا حتى ان العجوز اطمأنت للهجته بعض الشيء ووجدت في قوله ما يشجعها فقالت وهي تنظر الى الرهينة :

ـ لكن يا صديقي لم تصرفت هكذا منذ قليل ؟ ثم اشارت الى العلبة واضافت : ما هذا ؟

ـ علبة سجائر فضية . ماذا دهاك ؟ لقد حدثتك عنها من قبل .

فمدت يدها وهي تقول :

ـ كم انت شاحب ! ويداك ترتجفان ! هل انت مريض ؟

فأجابها بصوت مرتجف :

ـ كيف لا يشحب من لا يجد ما يأكل ؟ انني مصاب بالحمى ...

وخذلته قواه من جديد . غير ان العجوز اقتنعت بالجواب وتناولت الرهينة وعادت تسأل وهي تزن البضاعة في يدها وتنظر بحدة الى راسكولنيكوف :

ـ ما هذا ؟

ـ انه الشيء ... علبة السجاير .. علبة فضية ، عاينيها .

ـ هم !... لا تبدو انها من الفضة ثم انها ملفوفة بعناية .

وراحت تسعى لازالة الغلاف فاقتربت من النافذة حيث النور اقوى بعض الشيء لانها تحتفظ بنوافذها مغلقة دائما رغم الحرارة

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

الخانقة ، وتركته لحظات وقد ادارت له ظهرهـــا ... ففك ازرار معطفه وخلص الفأس من العقدة السيالـــة « الانشوطـــة » دون ان يخرجها من تحت ابطه واسندها بيده اليمنى تحت معطفه • شعر بضعف هائل يكتسح ذراعيه وبحركاته تتثاقل وكأن اطرافه قدت من رصاص وخاف ان تسقط الفأس من يده ! وفجأة احس بدوار • تناهى الـــى سمعه صوت العجوز وهي تقول :

ـ يا لها من فكرة سقيمة تلك التي قضت بحزم هذه العلبـــة في مثل هذا الغلاف ... فكان لهذه الجملة وقع السحر في نفسه • كان الوقت يدركه وعما قليل ستكشف المرأة الخدعة وعندئـــذ يضيـــع كل شيء •

اخرج الفأس من مكانها ورفعها بكلتا ذراعيه دون ان ينتبه الى حركته وتركها تسقط آليا ودون عنف على رأس العجوز ، فقد كانت قواه خائرة • لكنه سرعان ما استرد قواه بعد الضربة الاولى • وكانت العجوز كعادتها عارية الرأس وشعراتها البيضاء القليلة مضمخة بالأدهان كالعادة مجدولة على شكل ذنب فأر وملفوفة عـــلى مشـــط صغـــير في مؤخرة رأسها •

أصابتها الضربة الاولى في قمة رأسها وساعده عـــلى ذلـــك قصر قامتها • وكانت الرهينة لا تزال في احدى يديها • ثم انهال عليها بكل قواه بضربة ثانية وثالثة مستهدفا الرأس فتفجر الدم وكأنه سفح مـــن اناء • وتهاوى جسمها على الارض فتراجع الـــى الوراء ليتفـــادي الاصطدام بها ... كانت قد فارقت الحياة وقد اتسعت حدقتـــاها وكأنهما على وشك الخروج من محجريهما بينما راح وجهها وجبينهـــا يختلجان ويتقلصان من تشنجات النزع الأخير •

وضع الفأس على الارض قرب القتيل وراح يبحث في جيوبهـــا محاذرا تلويث يديه بالدماء التي كانت تتدفق من رأسها • بدأ بالجيب

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

اليمنى حيث رآها تضع المفاتيح في المرة الاخيرة . كان محتفظا بصفاء ذهنه لا يشعر بأي خدر أو دوار باستثناء رعدة خفيفة في يديه وكان يقظا حذرا فلم يتسخ ثوبه . عثر بالمفاتيح التي كانت تجمعها رزمة واحدة وتربطها حلقة من الفولاذ وهرع الى الغرفة الداخلية التي كان يحجب الستار بابها .

كانت غرفة صغيرة جدا يقوم في صدرها دولاب من الزجاج يغص « بالايقونات » والى الجدار المقابل سرير نظيف جدا وعليه غطاء من الحرير المبطن بالقطن مصنوع بعناية ودقة . وبالقرب من الحاجز الخشبي الذي يفصل بين الغرفتين قامت الخزانة . والغريب انه لم يكد يدخل المفتاح في القفل ويسمع الصرير حتى اعترته رعدة اكتسحت كيانه واحس برغبة ملحة بالفرار لكن تلك الرغبة لم تدم اكثر من لحظة واحدة اذ لم يكن من السهل التراجع بعد ان وصل الى تلك المرحلة . تملكته فكرة جديدة مقلقة: «ألا يمكن أن تكون العجوز لا زالت على قيد الحياة أو أن تكون الحياة قد عادت اليها ؟ فترك المفاتيح والخزانة وعاد الى قرب الجثة وامسك بالفأس مرة اخرى ورفعها بين يديه لكنه لم يضرب . ذلك لأن وفاة العجوز كانت أمرا محققا . انحنى فوقها يتفحصها عن قرب فرأى ان جمجمتها محطمة وان الجزء الاعلى منها قد انتزع من مكانه وود لو لمسه بيده ولكنه تماسك . شاهد بركة من الدم تجمعت على الأرض ووقع بصره فجأة على شريط من الحرير يطوق عنق القتيل فجذبه ولكنه امتنع عليه . كان الشريط غارقا بالدم فحاول رفعه ولكن عائقا كان يحول دونه . تملكه نفاذ صبر غريب وود لو استعمل الفأس مجددا ليقطع الشريط بضربة واحدة ولكنه لم يجرأ على ذلك . وبعد عناء وجهد دقيقين لوث خلالهما اصابعه والفأس بالدم توصل الى استخلاص الشريط من الجثة . كان يتدلى منه كيس وصليبان احدهما

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

من خشب السرو والاخر من النحاس وبينهما صورة من « الصيني » أما في الكيس فكانت حافظة نقود منتفخة من جلد الوعل ذات قفل صغير من الفولاذ • وضع راسكولنيكوف الحافظة في جيبه دون ان يعاين ما فيها والقى الصليبين فوق المرأة وحمل معه الفأس وعاد الى غرفة النوم من جديد •

راح يعمل بعجلة محمومة : ويجرب المفاتيح عبثا ولم يكن سبب ذلك ارتعاد يديه ، لانه كان يميز اشكال المفاتيح واحجامها ويدرك تماما ان هذه مثلا لا ينطبق على فتحة القفل وفجأة تذكر ذلك المفتاح الطويل ذي الأسنان المشرشرة وقدر أنه لا يمكن ان يكون لهذه الخزانة (وهو تقدير سبق له ان توصل اليه من قبل) بل انه مفتاح صندوق حديدي ما حيث يمكن ان تكون فيه كل ثروة العجوز • وعلى هذا فقد ترك الخزانة وراح يبحث تحت السرير معتمدا على ان العجائز اعتدن دائما اخفاء صناديقهن في مثل ذلك المكان •

لم يخطىء الظن فقد شاهد صندوقا ذا غطاء محدودب مكسو بقماش « الماروكان » الأحمر ومزين بالمسامير الحديدية ، ولما أدخل المفتاح في القفل فتحه بسهولة • وقع بصره بادىء ذي بدء على غطاء ابيض يخفي فراء أرنب تزينه أشرطة وبطانة حمراء وثوب من الحرير ثم حرملة « شال » • أما ما تبقى فلم يكن أكثر من خرق لا قيمة لها ولا شكل ، فراح يزيل الدم العالق بيديه مستعملا بطانة الفراء الحمراء وهو يحدث نفسه قائلا :

ـ انها حمراء والدم أحمر ولا شك أنه لن يظهر عليها •••

• فحفزه ذلك على متابعة البحث متأكدا أن أليونا ايفانوفنا تحتفظ بين هذه الخرق « بالرهائن » التي تحصل عليها لقاء ما تسلفه من مال•

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

بل لعلما يراه الآن لا يعدو الرهائن التي عجز أصحابها عن دفع ما استلفوه عليها من نقود فأصبحت ملكا للعجوز . رأى مجموعة غريبة من أقراط وأساور ودبابيس ثمينة بعضها لا زال في علبه المخملية والبعض الآخر ملفوفا بعناية بأوراق الصحف ، فأودع تلك الاشياء جيبه دون تردد.. ولم يستحسن فتح العلب كلها وفض اللفافات خشية ان يستغرق ذلك من الوقت ما هو في مسيس الحاجة اليه .

وفجأة سمع صوت خطوات في الغرفة التي سجت فيها جثة القتيل ، فتوقف وقد عقل الرعب القاتل حركاته فشلها ... وانقطع الصوت حتى أنه عزا ما سمعه الى اضطراب أعصابه وتخيلاته السقيمة المريضة . غير انه سرعان ما سمع صرخة خافتة اشبه بزمجرة مكتومة.. وران سكون مريع دام دقيقة او دقيقتين... كان خلالها مقعيا بالقرب من الصندوق يحاول عبثا استعادة هدوئه وتنفسه الرتيب .. وفجأة إنتفض بعنف واخذ الفأس بيده ثم هرع الى الغرفة التي ترك فيها القتيل !

كانت « اليزابيت » واقفة في وسط الغرفة وهي تحمل حزمة كبيرة ، وكانت تنظر بذهول وتبلد الى اختها الميتة وقد شحب وجهها حتى غدا كقطعة من القماش القذر ... بدا عليها انها عاجزة عن الصراخ فلما رأته مندفعا نحوها ارتعدت كالورقة التي تتقاذفها الرياح ، وقد اعترتها قشعريرة متقطعة وعلا وجهها تشنج دوري رتيب ! رفعت ذراعيها وراحت تتراجع ببطء أمامه باحثة عن زاوية تلتصق فيها وهي تحدق في وجهه خرساء مكتومة الانفاس . اندفع نحوها رافعا فأسه فتقلصت شفتا المرأة المسكينة تقلصا أليما شأن بعض الاطفال عندما يفاجأون بشيء يخيفهم ويحاولون الصراخ مستنجدين . كانت تلك التعسة من السذاجة بحيث انها لم ترفع ذراعها لتحمي وجهها كما ينتظر غريزيا في

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

موقف كالذي وجدت فيه . بل ان حركتها كانت من الضعف والحيرة حتى ان يدها لم ترتفع الى مستوى الكتف وهكذا اصابتها ضربة الفأس على رأسها ، وكان يستعملها هذه المرة من جزئها الحاد المدبب، فشطرت رأسها شطرا وتهاوت البائسة في مكانها بينما تناول راسكولنيكوف الحزمة التي كانت بين يديها والقى بها جانبا وعاد الى غرفة النوم من جديد .

بدأ الرعب يستحوذ على نفسه اكثر فأكثر وخصوصا بعد جريمته الثانية التي لم يكن قد مهد لها او ادخلها في حسابه وشعر برغبة ملحة في مغادرة المكان وكأنه أدرك تلك اللحظة دقة موقفه وحرجه وأنه على الرغم من توقعه مثل تلك المصاعب والعقبات فانه لم يكن حتى ذلك الحين الا في المرحلة الاولى وليس يدري كم من موانع جديدة ستنصب في طريقه قبل ان يعود سالما الى غرفته ، بل كم جريمة اخرى سوف يضطر الى ارتكابها واقتراف وحشيات ابشع فأبشع صيانة لسلامته ؟.. لو انه توقع كل ذلك لكان حريا به أن يتراجع . ودّ الآن لو يوقع بنفسه ليس من الخوف بل من الاشمئزاز وبشاعة ما اقدم عليه .

راح ذلك الاشمئزاز يتزايد في نفسه دقيقة فدقيقة حتى هتم بالابتعاد عن غرفة النوم والصندوق وسيطر على عقله شرود جديد أشبه بالتخيل . بلغ به الأمر أن نسي نفسه أو على الأصح نسي الفكرة الرئيسية التي جاء من اجلها ليهتم بتفاصيل ثانوية تافهة . من ذلك انه لاحظ في المطبخ دلوا مملوءا بالماء مثبتا فوق مقعد خاص فقرر ان يغسل يديه والفأس لأنها كانت مغطاة بالدم . واندفع الى حيث كان الدلو فغمر فيه حديد الفأس وانتزع قطعة من الصابون كانت في علبة على حافة النافذة وراح يغسل يديه داخل الدلو بالذات ولما انتهى أخرج الفأس وأمضى ثلاث دقائق وهو يزيل ما علق بمقبضها من نقاط

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

الدم حتى انه استعمل الصابون لهذه الغاية ثم جفف يديه والفأس بقطعة من الثياب كانت منشورة على حبل في المطبخ ، اقترب بعد ذلك من النافذة ليتسنى له معاينة مقبض الفأس بوضوح ولما تأكد من خلوها من الآثار أقلقه أن يكون المقبض رطبا وأخيرا أعادها الى مكانها من « الأنشوطة » وألقى نظرة أخيرة على معطفه وسروالـه وحذائه فرأى للوهلة الأولى نقاطا صغيرة على حذاءيه فبلل خرقة ومسحهما . وخيل اليه انه لم يعاين كل شيء وان هناك بعض التفاصيل غابت عن عينيه المدققتين فوقف برهة في وسط الغرفة يتأمل موقفه وظن لحظة انه بات اقرب الى الجنون لانه يفتقر فى تلك اللحظة الى الوعي الكافي للتحليل والتفكير والاستنتاج وزمجر يقول : « رباه ! ينبغي أن أفر ، أفر » ! غادر غرفة النوم محاولا الخروج وهناك لقي ما صعقه صعقا ـ وهو أدق تعبير يطلق على ما شعر به في تلك اللحظة ـ فوقف متسمرا في مكانه لا يصدق عينيه : رأى الباب ، الباب الخارجي الذي يؤدي الى حيث الجثتين ويطل على الممشى الخارجي ، ذلك الباب الذي قرعه منذ قليل ، الذي نفذ منه الى هذا المسكن ، رآه مواربا !.. ومعنى ذلك انه كان خلال كل هذا الوقت غير مغلق بالمفتاح ولا بالمزلاج واذن فان العجوز كانت قد تركته مفتوحا من باب الحذر والتعقل وبذلك أتيح لاليزابيت ان تدخل اذ لا شك انها لم تنفذ خلال الجدران .

بادر الى الباب فأغلقه ودفع المزلاج وراءه ووقف لحظة يفكر : وليس الأمر مجرد اغلاق الباب ، انما المهم هو الخروج . فعاد يفتح الباب ويصيخ السمع . تناهى الى اذنيه صوتان صاخبان يعربدان بسباب وشتائم فتساءل عمن يكون صاحبهما ، وانتظر بفارغ الصبر ان تخفت أصواتهما ويرتحلا ، وأخيرا وبعد لأي هدأت الأصوات ، وبينما كان يستعد للخروج سمع في الطابق الأسفل صوت باب يفتح

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

وزمجرة على السلم فخمن ان شخصا ما يهبط الى الاسفل وهو يدمدم لحنا وتساءل مرة أخرى قائلا :

ـ ما بالهم يحدثون مثل هذا الصخب ؟

أغلق الباب من جديد وعاد ينتظر حتى خيم السكون وهدأت الاصوات • وما كاد يضع قدمه على الدرجة الاولى حتى تناهى الى سمعه صوت خطى بعيدة آتية من أسفل السلم وشعر أن تلك الخطوات تتجه الى حيث هو بالذات أو بالاحرى الى حيث كان • اما كيف خمن ذلك ؟ وما هي المميزات التي تفردت بها تلك الخطى حتى توصل الى ذلك الاستنتاج ؟ ليس يدري ! كانت خطوات ثقيلة متزنة بطيئة وكانت في تلك اللحظة قد بلغت الطبقة الأولى من البيت وبدأ وقعها يتجاوب مرتفعا باطراد • أحس كأن صاحب الخطى يلتقط انفاسه المبهورة بصعوبة ، فلبث يتابع تلك الخطوات بسمعه حتى بلغت الطابق الثالث ولم يبقَ لوصولها اليه الا زمن يسير بينما لبث هو جامدا في مكانه عاجزا عن تحريك اطرافه •

بدأ القادم يرقى الى الطبقة الرابعة عندما استرد راسكو لنيكوف حواسه ونجح اخيرا في العودة الى المسكن الذي غادره فأغلق الباب وراءه ثم دفع المزلاج ببطء وهدوء محاذرا احداث أي صوت • كانت حركته غريزية فحسب فلما فرغ منها قبع وراء الباب كاتما انفاسه وجعل يصغي بكل حواسه •

بلغ القادم الباب ولم يعد يفصله عنه الا ذلك الحاجز الخشبي وشعر بأنه يصيخ السمع بدوره وأنه يتنفس بصعوبة وتصوره راسكولنيكوف ضخم الجثة طويل القامة ! قرع الزائر الجرس وانتظر برهة ثم عاود الكرة ولم يلبث ان استولت عليه غضبة مفاجئة فراح يهز الباب نافذ الصبر • وكان راسكولنيكوف يراقب المزلاج وهو يهتز في مكانه

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

وخيل اليه أنه سيتداعى آخر الامر تحت وطأة الهزات العنيفة وخطر له أن يمسك المزلاج بيده ويدعمه ولكنه خشي ان يفطن « الآخر » الى ذلك فطاش صوابه وبدأ الدوار في رأسه وظن أنه ضائع لا محالة . وفجأة سمع القادم يزمجر .

ـ ماذا جرى ؟ هل استغرقتا في النوم أم أن أحدا قتلهما ؟ يا للجيفتين! هيه ! أليونا ايفانوفنا ايتها الساحرة العجوز ! اليزابيث ايفانوفنا يا ذات الجمال الرائع ! افتحا .. آه يا ملعونتان ! هل يعقل أن تكونا نائمتين ؟

ومن جديد عاد يقرع الجرس بالحاح في ثورة غضبه حتى كاد ان يقطع الحبل وبدا كأنه ليس غريبا عن المرأتين وأنه يشغل مركزا هاما عندهما . وفي تلك اللحظة ارتفعت اصوات خطوات اخرى سريعة خفيفة .. كان قادم آخر يقترب من المكان، قادم لم يسمع راسكولنيكوف صوت خطاه أول الامر وسمع الحديث التالي يدور [illegible] : سمع القادم الجديد يقول :

ـ لا يعقل ان لا يكون أحد في البيت [illegible] » ..

كان الصوت رنانا مرحا حتى ان راسكو لنيوف قدر ان صاحبه لا يعدو أن يكون شابا في مطلع العمر . وأجاب الصوت الآخر :

ـ الشيطان وحده يعرف ! لولا قليل لاقتلعت القفل منذ لحظات ، ولكن كيف عرفتني أنت ؟

ـ كيف هذا ؟ ألم أهزمك امس الاول في « كامبرينوس » ثلاثة اشواط متعاقبة بالـ « بليارد » ؟

ـ آه .. آه ...

ـ غريب أن لا يكون في المنزل أحد ، بل أستطيع القول أنه غايه في

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

الغرابة ! أين يمكن أن تكون العجوز في هذه اللحظة ؟ عندي ما أقوله لها ؟

ـ وأنا كذلك يا صديقي عندي ما أقوله لها ..

ـ اذن ما العمل ؟ لم يبقَ الا أن ننسحب . ولكنني لا أفهم مع ذلك لم تحدد تلك الساحرة موعدافي هذه الساعة ثم تتخلف عنه ، والادهى من ذلك انني جئت من بعيد ، يا للشيطان ! لست افهم أين مضت . فهي لا تتحرك كل العام من بيتها ، تلك الساحرة . انها مريضة تشتكو ألما في ساقيها مع ذلك فهي ليست في مسكنها .

ـ ماذا لو سألنا حارس البناء ؟

ـ أين ذهبت ومتى تعود !

ـ هم !.. يا للشيطان ! نسأل ،.. نسأل .. ولكن بما انها لم تعتد الذهاب الى أي مكان فكيف نسأل ؟..

وجذب مقبض الباب من جديد وتابع :

ـ الى الشيطان لا بد وان نذهب خائبين .

ـ انتظر ... أنظر . ألا ترى كيف أن الباب قد تحرك لما جذبته ؟

ـ حسنا .. وماذا بعد ؟

ـ هذا يعني أنه غير مغلق بالمفتاح ، بل بالمزلاج .. ألا تسمع « صلصلة » المزلاج ؟

ـ حسنا .. وماذا بعد ؟

ـ أولا تفهم ؟ معنى ذلك أن واحدة منهما في البيت . فلو أن كلتيهما خارجتان لأغلقتا الباب بالمفتاح من الخارج وليس بالمزلاج من الداخل . انتبه ... هل سمعت الصوت الذي يحدثه المزلاج ؟ اذاً .. لكي يستطيع المرء أن يدفع المزلاج ينبغي أن يكون في الداخل هل أدركت ذلك؟

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

أرى أنهما هنا لكنهما لا تفتحان ؟!

فصاح كوخ مأخوذا :

ـ يه !.. لا شك أنهما هنا ...

وعاد يهز الباب بعنف بينما هتف الشاب يقول :

ـ انتظر . لا تجذب الباب هكذا ... ان في الامر ما يريب .. فلقد قرعت الجرس وهززت الباب بعنف وهما لا تفتحان واذن فهما مغمي عليهما أو ..

ـ ماذا ؟

ـ هيا لنأتِ بالحارس وليوقظهما بنفسه .

ـ حسنا ...

وراح الاثنان يهبطان السلم وفجأة هتف الشاب :

ـ انتظر .. قف أنت هنا قليلا وأنا سآتي بالحارس !

ـ ولِمَ أبقى ؟

ـ من يدري ؟

ـ ليكن !

وهتف الشاب متحمسا قبل أن يهبط السلم :

ـ أرأيت ؟.. انني أستعد لأكون قاضي تحقيق ! مما لا شك فيه ... نعم مما لا شك فيه ان في الأمر سرا مريبا .

بقي كوخ في مكانه وحيدا وجذب مرة أخرى حبل الجرس فارتفع صوته مجلجلا ثم أخذ يهز الباب ولكن بهدوء وكأنه مستغرق في خواطره . كان يدير المقبض يمينا ويسارا ليتأكد تماما من أن الباب غير مغلق بالمفتاح ثم نفخ كالثور الهائج وانحنى على ثقب الباب ينظر خلاله . لكن المفتاح كان فيه من الداخل وهذا ما حال دون ما اعتزم عليه .

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

أما راسكولنيكوف فكان واقفا دون حراك يضغط على فأسه ذاهلا . كان مستعدا لمقاومتهما والقضاء عليهما عندما يعودان وقد واتته فكرة مناداتهما وذلك للقضاء عليهما ، بل لشتمهما والسخرية منهما .

ومر الوقت دقيقة دقيقة ولم يعد الشاب مما جعل « كوخ » يتململ قلقا وأخيرا هتف يقول :

ـ يا للشيطان ! ماذا بعد ؟ لم انتظر ؟

وترك مكانه ومضى يهبط السلم مسرعا حتى اختفى وقع قدميه الثقيلتين وبحركة غريزية ، فتح راسكو لنيكوف الباب ثم أغلقه على أحسن ما استطاع وهبط السلم بدوره مندفعا فبلغ الطبقة الثانية حينما تناهى الى سمعه صخب وضجيج ينبعثان من الاسفل ، وحار في ايجاد مخبأ يلوذ به وكاد أن يعود ادراجه لولا أن سمع فجأة صوتا يصيح :

آه .. أيها الوحش القذر ! أوقفوه !

وأعقب ذلك هبوط سريع على السلم في الطبقة السفلى وصوت يصيح بجنون :

ـ ميتكا .. ميتكا .. ميتكا . ميتكا ليأخذك الشيطان

واعقبت الصرخات زمجرة مريعة استمرت حتى بلغت الساحة الخارجية ثم عاد السكون ، وفي نفس الوقت انبعث عدد من الرجال يتحدثون بأصوات مرتفعة وراحوا يصعدون بضجيج وصخب . قدر راسكولنيكوف أن يكون القادمون ثلاثة أو أربعة وغمغم « لقد أتوا !! » وبيأس واستبسال اتجه نحوهم وهو يقول لنفسه : ليكن ما يكون ! فأنا ضائع سواء أوقفوني أو تركوني ، أمر لأنهم سيذكروني حتما !

لم يبقَ بينه وبين القادمين الا طبقة واحدة وفجأة لاح له الخلاص ... رأى على مقربة منه الى اليمين مسكنا خاليا تماما وقد ترك بابه مفتوحا عرف فيه المسكن الذي يقوم العمال بترميمه وأدرك

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

أن أولئك العمال هم الذين خرجوا منذ قليل يتحدثون بأصوات مرتفعة وبدا له كأنهم تعمدوا ترك الباب مفتوحا ليتيحوا له مجال الاختفاء • وكان أرض المسكن ملطخا بالجير وفي وسط الغرفة صفيحة والى جانبها فرشاة كبيرة ووعاء فيه اصباغ • وبسرعة البرق انسل راسكولنيكوف الى الداخل والتصق بالجدار • ولم يكد يتوارى حتى وصل القادمون الى مكانه واستمروا يصعدون الى الاعلى وهم يتحدثون • وانتظر بضع ثوان ثم هبط مسرعا فلم يجد احدا في طريقه حتى بلغ الباب الرئيسي فنفذ منه الى الشارع •

كان يعرف انهم في تلك اللحظة قد بلغوا مسكن العجوز وانهم ذهلوا أمام الباب المفتوح الذي كان منذ لحظات متعصيا عليهم ورآهم بعين الخيال يتأملون الجثتين خلال دقيقة وأنهم توصلوا أخيرا الى الادراك بأن المجرم كان منذ قليل وراء هذا الباب المغلق وأنه نجح بوسيلة ما في الاختفاء والفرار تحت انوفهم • ولعلهم اهتدوا كذلك الى انه توقف لحظة في المسكن الخالي حينما كانوا يصعدون الى الطبقة الرابعة ••• لكنه ما كان يجرأ على حث خطاه رغم انه كان على بعد مائة خطوة من المنعطف الاول • كان يتساءل : « ماذا لو تسللت خلال احد المداخل واختفيت تحت واحد من هذه السلالم في بيت من هذه البيوت المجهولة ؟ » كلا ! سوف يؤذيني ذلك • اذن هل القي بنفسي في مكان ما ؟ هل استقل عربة ؟ كلا ! يا للتعاسة ! الويل الويل !

وأخيرا مر بزقاق فانعطف فيه وهو يكاد أن يموت من الذعر• كان حاله يوحي بالشك وينطق به • لكن الازدحام كان شديدا فضاع فيه كما تضيع الذرة في صحراء من الرمل • وبلغ من انفعاله واضطرابه انه كان يسير على قدميه بمعجزة • وكان العرق يغمر وجهه ويتصبب على عنقه حتى أنه سمع بعضهم يهتف به حينما بلغ مدخل القنال :

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

يبدو لي أنك جلّد جم المقاومة !

راح يهدأ اضطرابه كلما اوغل في السير ولما بلغ الرصيف روع اذ رأى عددا قليلا من الناس هناك وخشي أن تكون ملاحظته أسهل بين هذا العدد القليل وود لو رجع الى ذلك الزقاق المزدحم • واخيرا بذل مجهودا خارقا وقام بدورة وصل بعدها الى منزله عن طريق آخر •

لم تكن أفكاره هادئة تماما حينما تخطى مدخل البيت لذلك فانه لم يتذكر الفأس الا عندما بلغ السلم وعندئذ فقط تذكر ان عليه اعادتها الى مكانها بسرية تامة • ولم يستطع اقناع نفسه بجواز التملص منها كيفما اتفق دونما حاجة الى اعادتها الى مكانها لان فكرة استبقائها زمنا آخر بانتظار القائها في باحة منزل مجهول عندما تسنح الفرصة لم تكن تعجبه •

وهنا تدخل القدر ايضا لانه رأى باب كوخ الحارس مغلقا فاتجه نحوه دون تفكير ولا تدبر ودفع الباب برعونة حتى ان الحارس لو كان في مكانه وسأله عما يريد لما زاد على ان يقدم له الفأس دون ان يتفوه بحرف واحد • لكن الصدف أرادت أن تضيف الى ملابساتها العجيبة فعلا جديدا فلم يكن الحارس في كوخه • وهكذا اتاحت له ان يعيد الفأس الى مكانها بين قطعتي الخشب كما وجدها بل واكثر من ذلك : استطاع ان يبلغ غرفته دون ان يقابل احدا لان باب المطبخ « العتيد » كان مغلقا ••• هكذا استلقى راسكولنيكوف بكامل ثيابه على « السرير » لا لينام بل ليستغرق في ذهول عميق حتى انه لو دخل بعضهم غرفته لانتفض وانتصب واقفا وهو يصيح ويرتعد •

كانت صور وخيالات وافكار مبعثرة مشوهة تحتدم وتصطخب في رأسه لم يوفق في تمييز شيء منها ولم يستطع الأخذ بواحدة منها رغم الجهد العنيف الذي كان يبذله •

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

القسم الثاني

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

١

لبث مستلقيا وقتا طويلا ... وكان يبدو احيانا متنبها يدرك ان الليل قد اقبل وان قسما منه قد لف في حساب الزمن ، لكنه ما كان يفكر في النهوض .. وأخيرا بدا له أن النور يعم الغرفة وان النهار قد اقبل ، فلبث في ذهوله مستلقيا على « السرير » ووجهه الى الاسفل، بينما صكت اذنيه زمجرات مريعة صادرة من الشارع ... كانت تلك الزمجرات مألوفة لديه من قبل لانها أصوات السكارى الذين يخرجون من الحانات صاخبين ... فخمن ان الساعة قد جاوزت الثانية صباحا ... وقفز فجأة من « السرير » وكأن يدا انتزعته منه وهتف: « كيف الساعة الثانية ؟.. » وجلس مستغربا وسرعان ما عادت به الذاكرة الى الوراء فوعى كل شيء .

خيل اليه في اللحظات الاولى انه فقد العقل ، فسرت في جسده عربدة باردة من أثر الحمى التي بدأت تنهش عقله وجسمه كما كانت تفعل به من قبل ... واصطكت اسنانه حتى لكأنها تتحطم في فمه... نهض الى الباب يفتحه ويصغي بانتباه فلم يسمع حركة ولا حساً ... وكل من في البيت مستغرق في النوم . سرح طرفه في غرفته وعاد ينظر الى نفسه واستغرب كيف أغفل اغلاق باب غرفته من الداخل بالمزلاج عندما آب من جولته ... وكيف سمح لنفسه بالارتماء بكامل ثيابه على « الديوان » دون ان يخلع حتى قبعته ! نظر الى القبعة فاذا بها قد انحدرت عن رأسه لتستقر على الارض حيث كانت « وسادته » وتمتم على عادته القديمة : « لو أن أحدا دخل غرفتي ماذا كان حري به ان يظن ؟ سيقول انني ثمل ولكن ... » .

هرع الى النافذة وراح يتفحص ثيابه بدقة على الضوء القوي

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

الذي كان يتدفق خلالها . لكنه سرعان ما استخف الطريقة التي يسلكها ... فنزع ثيابه وهو يرتجف ليقوم بالفحص اللازم . لم يترك ثنية الا وبحث خلالها ، ولا طية الا وسواها وبحث فيها وأعاد الفحص مثنى وثلاثا .. دون أن يجد لطخة واحدة باستثناء بضع نقاط تجمعت اسفل كم سرواله ، فأخذ سكينا كبيرا من النوع الذي يطوى وقطع ذلك الجزء من الثوب وهكذا بدا كأن كل شيء قد اختفى ...

تذكر فجأة حافظة النقود والاشياء الاخرى التي اخذها من صندوق العجوز والتي كانت في تلك اللحظة تملأ جيوبه ! لم يكن قد فكر في اخراجها والتخلص منها بل انه لم يفكر منذ قليل وهو يتحرى ثيابه ! كيف ذلك ؟ هل هذا معقول ؟ وبلمحة خاطفة ، بادر الى انتزاعها من جيوبه والقائها على المائدة ثم قلب بطانة جيوبه خشية ان يبقى فيها شيء لم يعثر عليه وحمل ما تراكم لديه منها الى زاوية من الغرفة ... وفي تلك الزاوية من الجدار ، كانت بعض القطع من سجاد الزينة معلقة وقد بليت وحال لونها حتى بات وجودها لونا من الوان البؤس الذي تفيض به الغرفة ، فحشر تلك الاشياء في ثغرة وراءها تحت الورق الباهت الذي يزين الجدار وتمتم : «هكذا... لن ترى ولن تعرف ... وسألحق المحفظة بها » .

شعر براحة بال وعاد يتأمل المكان الذي اخفى فيه مسروقاته ولم يلبث ان هتف : « يا الهي ... ماذا فعلت ؟ هل يسمى هذا مخبأ ... أهكذا يخبىء المرء ما يريد ؟ » ... والحقيقة انه لم يكن قد فكر في غير المال النقدي لذلك لم يكلف نفسه عناء البحث المسبق عن المخبأ المناسب ، واسترسل يدمدم :

ـ « لكن الآن ... نعم الآن ؟ هل لي أن أغتبط بهذه النتيجة ؟ هل هكذا تخفى الاشياء ؟ لا شك انني فقدت العقل ! » ..

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

ولما أعياه التفكير ، عاد الى السرير مرة ثانية يجلس عليه وعادت القشعريرة القاسية تهز جسده ... وبحركة آلية ، جذب اليه معطفه القديم الذي كان ملقى على « كرسي » هناك وتدثر به ، واستحوذ عليه الذهول فراح في بحران عميق وهو بين النوم واليقظة وفقدان الحس ! لكن ذلك لم يدم طويلا اذ لم تمض دقائق معدودة حتى انتفض من جديد وانحنى بارتياح يفحص ثيابه ، وزمجر خلال اسنانه المطبقة يقول :

ـ « كيف أسمح لنفسي بالنوم وأنا لم أنته من عمل شيء ؟ لا شك انني لم انته من شيء ... نعم لا شك ! وكيف ازعم ذلك وانا لم ارفع « الإنشوطة » من مكانها من المعطف » .

انتزع « الانشوطة » ومزقها قطعا صغيرة واودع القطع وسادته وهو يتمتم : « كيف غفلت عن هذا الاثر ؟ أما هذه القطع الممزقة من القماش فانها لن تثير الان اية شبهة ، او على الاقل هذا مايبدو لي ... نعم كذلك يبدو لي » . ووقف في وسط الغرفة وهو يجيل حوله نظرات محمومة واجفة فلم يترك الارض ولا الجدران الا وتفحصها بدقة ليتأكد من انه لم ينس شيئا .

كان شعوره بأن كل شيء بدأ يخونه حتى الذاكرة ، يؤلمه اشد الالم ويزيد في تعذيبه ، فدمدم مروعا : « ماذا ... هل يعقل ان يبدأ ذلك ؟ هل يعقل ان يكون العقاب قد بدأ يدب ليعمل عمله ؟ ويلاه ... ها هو ! .. ها هو !.. انه هو . » كانت القطع الممزقة التي فصلها عن سرواله والتي كانت آثار الدماء عالقة فيها ، ملقاة باهمال على الارض عرضة لانظار اي داخل متطفل ! لذلك لم يتمالك ان هتف وهو فريسة القلق القاتل : « ماذا جرى لي ؟ .. ماذا حصل لي ؟ » .

خطرت له فكرة غريبة في تلك اللحظة: لعل تلك الثياب كلها ملوثة

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

بالدماء دون أن يلاحظ ـ هو ـ ذلك ، أم لعله لم يتمكن من العثور عليها نظرا لحواسه الضعيفة الفانية وتفكيره السقيم القاتم ! وفجأة تذكر ان حافظة النقود ملوثة هي الاخرى بالدم . فناجى نفسه قائلا : « ... وعلى ذلك فان الدم ينبغي ان يكون قد علق في جيبي كذلك لان الدماء لم تكن قد جفت عليها حينما اودعتها جيبي ! » .. وقرن القول بالفعل فقلب بطانة جيبه واذا عليها آثار واضحة من الدم فهتف : « اذن ... لم يهجرني التفكير السليم تماما .. لا زلت امتلك قواي العقلية وحرية تفكيري والا لما توصلت الى هذه الاستنتاجات ! » . وندت عن صدره زفرة فرح وغبطة وراح يتذوق هذا الانتصار المبين ويحدث نفسه بقوله : « لم يكن ما شعرت به من قبل الا الضعف الذي تحدثه الحمى ... كان لحظة ذهول فحسب » . ونزع بطانة الجيب الايسر كلها ! وفي تلك اللحظة نفذ شعاع من الشمس خلال النافذة وسقط على حذائه الايسر ... كانت بعض الآثار تبدو على مقدمة الحذاء ... فغمغم : « ان مقدمة حذائي كلها مغموسة بالدم » ... اي أنه في لحظة شرود ، وطأ بقدمه بركة الدم ... وهتف بانفعال يقول: « ما العمل الان ؟ كيف اتخلص من هذا الان ؟ كيف اتخلص من هذا الجزء من نعل الحذاء ومن بطانة الجيب ومن قطع السروال الملوثة ؟ » .

جمع تلك الاشياء كلها وحملها في يده ووقف منتصبا في وسط الغرفة يجيل الطرف حوله مستطلعا منقبا وراح يتساءل : أفي المدفأة ؟ ولكنهم سيبحثون فيها قبل كل شيء ! أأحرقها ، ولكن كيف ؟ وبأي شيء وأنا لا أمتلك ثقابا ! كلا ... الافضل أن ألقيها بعيدا ! » . وعاد الى « الديوان » وجلس عليه واسترسل يقول : « ولكن الان ... فورا ... ودون تأخير ! » لكن رأسه سقطت مجددا على الوسادة يثقلها المرض والتعب والانهاك ومن جديد أحس بالرعدة المتجمدة الأليمة تجتاح جسده المتداعي ... ومن جديد جذب معطفه اليه يتدثر به .

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

واستمر وقتا طويلا فريسة فكرة واحدة تضرب على اعصابه باستمرار والحاح فكرة التخلص من تلك الاثار بأسرع ما يمكن ... كانت تتجسد امام ناظريه وفي خياله وتحدثه قائلة: « فورا ... فورا ... ».

حاول مرارا ان ينهض من « السرير » ولكنه كان يخفق في كل مرة. وسمع فجأة قرعا عنيفا على الباب وصوتا مزمجرا يقول :

ـ افتح ... هل انت ميت ؟ نعم أم لا ؟ أنت لا تحسن الا النوم.. انه ينام اياما كاملة كالكلب ! هيا افتح ... لقد تجاوزت الساعة العاشرة !

كان المتحدث ناستاسيا المخيفة ... ناستاسيا فحسب ! وسمع صوتا آخر يقول ـ لعله لبس في غرفته !

فانتفض راسكولنيكوف وقال يخاطب نفسه : « اللعنة ... هذا صوت الحارس ! ترى ماذا يريد ؟ شعر أن قلبه يكاد أن يبلغ فمه ... وقالت الخادم مزمجرة تجيب على تعليق الحارس :

ـ ومن الذي اغلق الباب بالمزلاج اذن ؟ أرأيت هذا ؟ انه يحبس نفسه الان ! هل يخشى ان يخطفه احد ! هيا افتح ... استيقظ ايها « اللوار » (١) .. استيقظ .

خاطب راسكولنيكوف نفسه قائلا : « ماذا يريدون ؟ لماذا الحارس ؟ لقد اكتشف كل شيء ! هل اقاوم ام افتح ؟.. ليذهبوا الى ... »

ونهض قليلا وانحنى نحو الباب فرفع المزلاج ... كانت غرفته من الضيق بحيث تسمح له أن يعمل ذلك دون أن يبارح مكانه ! ورأى أمامه الحارس وناستاسيا منتصبي القامة !

---

(١) ـ اللوار حيوان مفترس ، يختفي طيلة الشتاء ويقتات بالبلوط يضرب به المثل لمن ينامون نوما عميقا .. المترجم

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

تفحصته ناستاسيا بنظرة غريبة ، أما هو فقد نظر الى الحارس نظرة ملؤها التحدي واليأس ! فمد هذا يده اليه وفيها ورقة سمراء مطوية ومختومة بالشمع الاحمر ! وقال وهو يسلمها اليه :

ـ انها دعوه جاءت من الدائرة !

ـ أيـة دائـرة؟

ـ من دائرة الشرطة ! انهم يطلبونك ... الا ترى انها مـن دائرة البـوليس !

ـ لست أدري ! انهم يدعونك فأذهب اليهم !.. ونظر اليـه بأهتمام وألقى نظرة شاملة على المكان ثم انصرف .

قالت ناستاسيا دون ان تفارقه بنظرها :

ـ الست منحرف المزاج ؟ ان آثار الحمى بادية عليك منذ البارحة!

فلم يتحرك ولم يجب ، لكنه فض الدعوة التي سلمها اليه الحارس دون ان يلقي نظره على ما فيها بينما اردفت ناستاسيا وقد لانت لهجتها بعض الشيء وظهرت امارات الشفقة على وجههـا : ـ حـتـا ... لا تنهض ... واذا كنت مريضا فلا تذهب الى دائرة الشرطة فليس في الأمر ما يستدعي العجلة .. ما هذا الذي في يديك ؟

نظر الى حيث اشارت فرأى قطعة السروال الملوثة والجزء الـذي انتزعه من « نعل » حذائه و ... بطانة الجيب الملوثـة ! كان لا زال محتفظا بها في يده وقد نام وهي في يده لم يفلتها ! لم يفعل شيئا ... بل ضغط بشدة على تلك الاشياء في يده وارتمى على فراشه وهـو بين الموت والحياة ... كانت الحمى تنهش جسده ومقاومتـه تضعف باستمرار . بينما استرسلت ناستاسيا تقول :

ـ أرأيت الى هذه الخرق والتفاهات يجمعها وكأنها كنز ثمين !

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor

والأدهى من ذلك أنه ينام وهو ممسك بها ! وانفجرت في ضحكتها المكتومة وراح جسمها يهتز ويرتعد ويتلوى على الاثر !

اخفى راسكولنيكوف تلك « التفاهات » تحت معطفه بسرعة شأن البخيل الذي يدافع عن ثروته وحدجها بنظرة نفاذة ... شعر وهو في شبه غيبوبة ان الامر ليس خطيرا كما توهم لانه لا يعقل ان يعامل امرؤ يراد توقيفه وسوقه بهذا الشكل ! وسمع ناستاسيا تخاطبه وكأن صوتها صادر عن مكان سحيق !

ـ ألا ترغب في قدح من الشاي ؟ سوف آتيك بقدح اذ لا زال بعضه في الاناء !

فدمدم دون ان يعي :

ـ كلا ... سأذهب ... أريد أن أذهب الى هناك . الى الدائرة فورا... وهم بالوقوف . فخرجت دون ان نضيف كلمة واحدة .

هرع الى النافذة يعاين قطعة « النعل » والخرق الملوثة وقال : « انها ملطخة ولا شك ، ولكنها غير واضحة المعالم والفضل يعود الى الاحتكاك والطين اللذين جعلا اللون حائلا ... وهكذا فان « ناستاسيا » لم تميزها عن بعد ! حمدا لله » ثم ادنى « الدعوة » من عينيه وراح يقرأ ... لبث يقرأ ويتمعن برهة طويلة حتى فهم . كانت دعوة عادية جدا من مكتب مدير شرطة الحي « قوميسير » يطلب اليه فيها المثول في القسم في التاسعة والنصف من ذلك النهار !

أخذ يسأل نفسه قائلا : « ما معنى هذه الدعوة ؟ أنا شخصيا لا تربطني علاقات مع رجال الشرطة ... ثم لماذا اليوم بالذات ؟ »

هم ان يجثو على ركبتيه مبتهلا الى الله ان يلهمه الرشد والسكينة من ذلك القلق المميت الذي استولى عليه ... وتلاعبت على شفتيه

PDF compression, OCR, web-optimization with CVISION's PdfCompressor